موقف المتكلمين من الصرفة في إعجاز القرآن الكريم

إعداد

دكتور/ محمد أحمد بخيت عبد ربه

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين- بالقاهرة

مقدمة:

الحمد لله الذي هدانا إليه صراطا مستقيما، وجعلنا من أهل طاعته، وأكرمنا بالإسلام، وهدانا للإيمان، وأصلي على خاتم رسله وأنبيائه، الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده، حتى أتاه اليقين من ربه، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأخيار، وأصحابه الأبرار. ... أما بعد:

فقد كان للقرآن الكريم -ولا يزال- مكان الصدارة في دراسات الباحثين، فهو معجزة الرسول الخاتم -عليه الصلاة والسلام-، والقانون المنظم للسلوك، والمرشد إلى معالي الأمور. وكان العرب حين نزول القرآن يسمعون القرآن ويعجبون به، ويكادون يسجدون لفصاحته، ويوقنون - يقين العارف الخبير - أنه ليس من قول البشر[1]، لقد كان الذوق العربي السليم يساعد أصحابه على إدراك الأساليب القرآنية في مخاطباته، وكانت قدسية القرآن وعظمته مسيطرة على نفوسهم، وكان الإقرار بالعجز عن الارتفاع إلى مستواه كامنا في النفوس. ومضى القرن الأول، وتبعه القرن الثاني والعلماء لا يمسون نواحي إعجاز القرآن إلا مسا خفيفا، فلما كان القرن الثالث وبدأت السليقة العربية تفقد صفاءها، وبدأت الثقافات المختلفة، والفلسفات الهندية والفارسية، واليونانية، تتسلل إلى المجتمع الإسلامي، اتسعت الخلافات المذهبية وتعددت النحل، وتفرقت الأهواء والسبل، واحتدمت المعارك، وقويت الخصومة وعنف الجدل حول الآراء

١ - انظر مقال : مذهب الصرفة، مجلة الأزهر الشريف، مجلد / ٢١، ١٣٦٩هـ، د. علي محمد حسن العماري ص/٤١ .

الكلامية، وكان إعجاز القرآن أحد الميادين الكثيرة التي تبارت فيها الفحول، وتصاولت في رحابها الوسيعة القروم، وبدأ الحديث عن سبب عجز العرب عن الإتيان بمثل أقصر سورة من سور القرآن، فبرز قول غريب في البصرة التي كانت تموج بالتيارات الفكرية المختلفة، مفاده : أن إعجاز القرآن ليس لشيء ذاتي فيه، وإنما هو لصرف الله تفكير العرب عن معارضته، وهو القول الذي تبناه فيما بعد: إبراهيم بن سيار النظام، أحد شيوخ المعتزلة في البصرة، وعرف هذا القول فيما بعد بالصرفة، عند ذلك عكف العلماء على دراسة كتاب الله بصورة علمية منظمة لاستجلاء مواطن الجمال في تعبيره الفني، والأسرار البلاغية في بيانه المعجز(١)، فكان نتيجة لذلك مؤلفات في الإعجاز لها مكانتها، كما كان من ذلك ثروة كبيرة من الأقوال المبسوطة في إعجاز القرآن تضمنتها كتب علم الكلام وعلم التفسير. ولا أريد في هذا البحث سرد وجوه إعجاز القرآن التي قال بها العلماء، وإنما سألقي الضوء على قول ظنه بعض العلماء وجها من وجوه الإعجاز، وهو يقينا ليس منها، ولقد جاء هذا البحث، يدرس موضوع الصرفة، ويبين معناها، وكيف نشأت ومن أول من قال بها، وأدلته في ذلك، وكذا في بيان أدلة من عارضها، وأسميته (موقف المتكلمين من الصرفة في إعجاز القرآن الكريم).

١ - د. نعيم الحمصي : فكرة إعجاز القرآن، ص ٩٨.

وقد جاء البحث في مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة على ما يأتي:

المقدمة وفيها: أهمية الموضوع، وأسباب اختيار البحث، وتبرز أهمية الموضوع في النقاط التالية:

١- **تعود أهمية هذا الموضوع لصلته الوثيقة بالقرآن الكريم.**

٢- **أن هذا الموضوع تجاذبته أراء العلماء بين القبول والرد.**

٣- **أن هذا الموضوع تجاذبته كذلك أراء العلماء من حيث نشأته ومصدره.**

٤- **أن من قال بالصرفة تعددت آراؤهم فيها، فمنهم من جعلها وجهاً مستقلاً للإعجاز، ومنهم من جعلها بجانب الوجوه الأخرى دون سلب إعجاز القرآن في فصاحته وبلاغته ونظمه.**

٥- **وتعود أهمية الكتابة في الموضوع، لبيان أثر القول بالصرفة.**

المبحث الأول: التعريف بالصرفة.

المبحث الثاني: نشأة القول بالصرفة.

المبحث الثالث: القائلون بالصرفة وأدلتهم.

المبحث الرابع: المعارضون للصرفة وأدلتهم.

الخاتمة: وفيها بينت أهم النتائج التي توصل لها الباحث.

أسباب اختيار الموضوع

إن البحث في هذا الموضوع مهم، لتعلقه بالقرآن، فهو يُعنى بجانب من جوانب الإعجاز قبولا أو ردا. فمن دواعي البحث بهذا الجانب، الاطلاع على أراء العلماء في هذا الموضوع، وتلمس الرأي الصحيح فيه.

المبحث الأول: معنى الصرفة لغة واصطلاحا:

الصرفة لغة: على وزن فعلة- بفتح الفاء واللام وسكون العين-:رد الشيء عن وجهه، يقال: صرفه يصرفه، صرفا، فانصرف، وصارف نفسه عن الشيء: صرفها عنه. قال تعالى: (ثم انصرفوا)[١] أي: رجعوا عن المكان الذي استمعوا منه، وقيل:- انصرفوا عن العمل بشيء مما سمعوا. وقوله تعالى: (صرف الله قلوبهم[٢] أي: أضلهم الله مجازاة على فعلهم، وصرفت الرجل عني فانصرف)[٣].

وذكر الخليل في كتاب العين معنى الصرف فقال: الصَّرْفُ فَضْلُ الدَّرْهَم في القيمة وجَوْدةُ الفِضَّة وبيع الذَّهَبِ بالفضَّةِ ومنه الصَّيْرَفِيُّ لتَصريفه أحدهما بالآخَر [٤]. وقال الراغب في معنى الصرف ما نصه: الصَّرْفُ: ردّ الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، يقال: صَرَفْتُهُ فَانْصَرَفَ. قال تعالى: ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ [٥]، وقال: أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ [٦]، وقوله: ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ [٧]، فيجوز أن يكون دعاء عليهم، وأن يكون ذلك إشارة إلى ما فعله بهم، وقوله تعالى:

---

١ - سورة التوبة / ١٢٧ .. والآية بتمامها (وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون).

٢ - سورة التوبة / ١٢٧.

٣ - ابن منظور : لسان العرب –ج٧/ صفحة٣٢٨ (مادة صرف) .

٤ - الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، دار ومكتبة الهلال، (بدون ذكر الطبعة وسنة النشر)، ت:د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، (ج ٧ / ص ١٠٩).

٥ - سورة آل عمران/ ١٥٢.

٦ - سورة هود/ ٨.

٧ - سورة التوبة / ١٢٧ .

فَما تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً[١]، أي: لا يقدرون أن يَصْرِفُوا عن أنفسهم العذاب، أو أن يصرفوا أنفسهم عن النّار. وقيل: أن يصرفوا الأمر من حالة إلى حالة في التّغيير، ومنه قول العرب: (لا يقبل منه صَرْفٌ ولا عدل)، وقوله: وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِ [٢]، أي: أقبلنا بهم إليك وإلى الاستماع منك، والتَّصْرِيفُ كالصّرف إلّا في التّكثير، وأكثر ما يقال في صرف الشيء من حالة إلى حالة، ومن أمر إلى أمر. وتَصْرِيفُ الرّياح هو صرفها من حال إلى حال[٣].

وجاء في اللسان الصَّرْفُ: رَدُّ الشيء عن وجهه صَرَفَه يَصْرِفُه صَرْفاً فانْصَرَفَ وصارَفَ نفْسَه عن الشيء صَرفَها [٤] ويأتي الصرف بمعاني أخرى كالتوبة والتطوع والقيمة والعدل والمثل والميل والنافلة[٥].

وفي صبح الأعشى، الصرفة: وهي كوكب نير، وسمي هذا الكوكب بالصرفة لانصراف الحر عند طلوعه مع الفجر من المشرق وانصراف البرد إذا غرب مع الشمس، ويقال الصرفة ناب الدهر لأنها تفتر عن فصل الزمانين[٦].

---

١ - سورة الفرقان /١٩.

٢ - سورة الأحقاف / ٢٩ .

٣ - الأصفهاني، الحسين بن محمد المعروف بالراغب، المفردات، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت،(ط: الأولى - ١٤١٢ هـ)، ت: صفوان عدنان الداودي، (ج ١ / ص ٤٨٢).

٤ - ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي، (ت ٧١١)، لسان العرب، دار صادر – بيروت، (ط ١)، (ج ٩، ص ١٨٩)

٥ - السابق، بنفس الصفحة.

٦- القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نشر: دار الفكر – دمشق، ((الطبعة الأولى، ١٩٨٧) تحقيق: د. يوسف علي طويل (ج ٢، ص ١٧٧).

وقال ابن قتيبة: وسميت الصَّرْفَة لانصراف البرد وإقبال الحر[١] وقد جعلها العرب في أسجاعهم، كقولهم: إذا طلعت الصَّرْفة بكرت الخُرْفه وكثرت الطُّرْفة وهانت للضيف الكُلْفَة[٢] وكقولهم أيضا إذا طَلِعَت الصَّرْفَة احتَالَ كلُّ ذي حِرْفَة وقيل اخْتَالَ كلُّ ذِي خُرْفَة وجَفَرَ كلُّ ذي نُظْفَة وامْتِيزَ عن المياه زُلْفَة[٣].

وَالْعَرَبُ تَقُولُ: الصَّرْفَةُ نابُ الدَّهْرِ لأَنها تفْتَرُّ عَنِ الْبَرْدِ أَو عَنِ الحَرّ فِي الْحَالَتَيْنِ؛ قَالَ ابْنُ كُناسةَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لانْصراف الْبَرْدِ وَإِقْبَالِ الْحَرِّ، وَقَالَ ابْنُ بَرّيٍّ: صَوَابُهُ أَن يُقَالَ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لانْصراف الحرّ وَإِقْبَالِ الْبَرْدِ. والصَّرْفةُ: خرَزةٌ من الخرَز التي تُذْكر فِي الأُخَذِ[٤]، قَالَ ابْنُ سِيدَهْ[٥]: يُسْتَعْطَفُ بِهَا الرِّجَالُ يُصْرَفون بِهَا عَنْ مَذاهِبهم وَوُجُوهِهِمْ.

والخلاصة مما جاء آنفا من معاني يعود إلى معنى التبدل والتحول وانتقال شيء إلى شيء، أو من حال إلى حال.

الصرفة في الاصطلاح.

عرفت الصرفة في الاصطلاح بتعريفات كثيرة، كلها تدور في معنى واحد وهو: أن الله صرف همم العرب عن معارضة القرآن، وكانت في

---

١ - ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، أدب الكتّاب، (ج ١، ص ٢٠).

٢ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، (الطبعة الأولى، ١٩٩٨) تحقيق: فؤاد علي منصور، (ج ٢، ص ٤٤٦).

٣ - ابن سيده، علي بن إسماعيل، المخصص، دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤١٧هـ ١٩٩٦م،الطبعة: الأولى، تحقيق: خليل إبراهيم جفال، (ج ٢، ص ٣٦٩).

٤ - ابن منظور، لسان العرب، (ج ٩، ص ١٨٩).

٥ - ابن سيده، المخصص، (ج ١، ص ٣٧٥).

مقدورهم، لكن عاقهم عنها أمر خارجي، فصار معجزة كسائر المعجزات، ولو لم يصرفهم عن ذلك، لجاءوا بمثله كما بين ذلك الإمام الزركشي والإمام السيوطي[١]. ومن هذه التعريفات ما يلي:

١- الصرفة: هي صرف الهمم عن المعارضة [٢].

٢- صرف اللهِ همَمَ العرب عن معارضة القرآن [٣].

٣- قال المؤيد بالله العلوي[٤] واعلم أن قول أهل الصرفة يمكن أن يكون له تفسيرات ثلاثة:

أ – التفسير الأول أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية، والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء.

ب – التفسير الثاني أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن ويقاربه، ثم إن سلب العلوم يمكن تنزيله على وجهين، أحدهما أن يقال: إن تلك العلوم كانت حاصلة

---

١ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن- ج٢/ ص٩٣. والسيوطي: الإتقان في علوم القرآن ج٢ ص ١١٨بتصرف واختصار.

٢ - الرماني، علي بن عيسى، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ود.محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط ٤،القاهرة (ص ١١٠).

٣ - الخطابي، حمد بن محمد أبو سليمان، بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ود.محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط ٤،القاهرة (ص٢٣).

٤ - العلوي، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، الناشر: المكتبة العنصرية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ، (ج ٣، ص ٢١٨).

لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم ومحاها عنهم، وثانيهما أن يقال: إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم، خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم من تجديدها، مخافة أن تحصل المعارضة.

ج – التفسير الثالث أن يراد بالصرفة أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القسر عن المعارضة، مع كونهم قادرين وسلب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة، وحاصل الأمر في هذه المقالة: أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه.

٤ – وتعني: أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدورا لهم لكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات[١].

٥– ويرى د. منير سلطان أن الصرفة عند النظام هي انصراف أكثر منها صرفة، ورجوع بعد شعور بالعجز أكثر منه تحويل للعجز إلى إعجاز[٢] فهو إما أنه يعتذر عن النظام، أو يريد تفسيرها على غير ما هو متداول عن معناها عنده كما هو مشهور عند العلماء عن النظام، إلا أن هذا مردود برد تلميذ النظام ألا وهو الجاحظ على شيخه، فإن كان كل العلماء أخطئوا في فهم مراد النظام – ولا أظن ذلك – فليس من المعقول أن يخطئ الفهم كذلك تلميذه الذي هو أقدر على فهم المراد مما يراد من الشيخ.

---

١ - السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، دار الفجر للتراث – القاهرة، ط ١، ٢٠٠٦ م، تحقيق: حامد أحمد الطاهر البسيوني، (ج ٤، ص ٣٠٨).

٢ - سلطان، د. منير، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، الناشر: منشأة المعارف – الإسكندرية، الطبعة: الثالثة /١٩٨٦ م(ص٥٦).

٦ – ذكر د. محسن الخالدي [١] قولا رابعا وخامسا زيادة على ما نقله عن العلوي فقال: رابعا: إن الله تعالى صرفهم عن الإتيان بما يدانيه مع أنه ليس مقدوراً لهم، وذلك حتى لا يلتبس قولهم على ضعاف العقول والنفوس، ومن لا دراية له بأساليب العرب، والخامس حمله على أنه انصراف لا صرفة، وكأنه كقول من اعتذر للنظام وهو ما بينته أنفا ولا أريد إعادة نقله اختصارا، ولا أدري هل هذه التعاريف التي ذكرها الدكتور من رأيه أم أنه نقلها عن أحد سبقه إليها فلم يشر إلى ما يفصل هذا فلم يقل قلت عند بداية الكلام ولم يوثق في نهايته.

من خلال التعريفات والآراء السابقة يتبين لنا أن القائلين بالصرفة قد اختلفوا فيما بينهم في معنى الصرفة، فقالوا : إن الله سبحانه– لأجل إثبات التحدي –حال بين فصحاء العرب وبلغائهم، وبين الإتيان بمثل القرآن بأحد الأمور الثلاثة التالية:

١– صرف دواعيهم وهممهم عن القيام بالمعارضة، فكلما هموا بها ، وجدوا في أنفسهم صارفا ودافعا يصرفهم عن منازلته في حلبة المعارضة، ولم يكن ذلك لعدم قدرتهم عن الانصداع لهذا الأمر، بل إن المقتضي فيهم كان تاما، غير أن الدواعي والهمم صارت مصروفة عن الالتفات لهذا الأمر، ولولا ذلك لأتوا بمثله.

٢– سلبهم – سبحانه – العلوم التي كانت العرب مالكة لها ومتجهزة بها، وكانت كافية للإتيان بما يشاكل القرآن، ولولا هذا السلب لأتوا بمثله.

---

١ - الخالدي، محسن سميح، الصرفة، بحث منشور من ٣٤٢ يونيو ٢٠٠٤ - مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الشرعية) المجلد الثاني عشر – العدد الثاني، ص ٣٠٥ – ص ٣٤٢)، يونيو، ٢٠٠٤، (ص ٣٠٨)

٣- إنهم كانوا قادرين على المعارضة، ومجهزين بالعلوم اللازمة لها، ولكن الله منعهم بالإلجاء على جهة القسر من المعارضة، مع كونهم قادرين، فتقهقروا في حلبة المعارضة لغلبة القوة الإلهية على قواهم.

ولا شك أن الصرفة بكل صورها، تسلب الإعجاز الذاتي للقرآن، وأنها وهم ذهب إليه خيال القائلين بها، دون سند، أو دليل.

المبحث الثاني: نشأة القول بالصرفة

إن مما يجب التأكيد عليه هو أنه لم يصلنا شيء عن الصرفة من كلام السلف أصحاب القرون الأولى الفاضلة، بل لم يؤثر عن أحد منهم، ولم ينقل عن أحد من أهل السنة بمفهومه الخاص[1] شيء يذكر، وإنما نقل وتم تداوله عن العديد من أهل الكلام وأتباع الفرق المختلفة، مما سيأتي بيانه قريبا.

وقبل الولوج في بيان منشأ هذا القول وانتشاره بين المسلمين، أحب التعريج والتنبيه على أن القول بالصرفة عزاه بعضهم إلى أن منشأه كان بعيدا عن البيئة الإسلامية، ومن ثم انتقل إلى بيئة المسلمين لعدة أسباب وعوامل بعضها مرده البيئة الفكرية والجو العلمي والمعرفي العام وما نتج عنه من حركة الترجمة، وبعضه مرده إلى الأشخاص ذواتهم، وبعضها الأخر مردها نوايا أصحاب هذه الأقوال.

أما ما كان مرده إلى البيئة الفكرية والجو العلمي والمعرفي العام، فمعروف أن القول بالصرفة كان في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث، وهذه الفترة هي التي نشطت فيها الترجمة كما هو معروف في عهد العباسيين، فقد نشطت الترجمة ونقلت كتب الأفكار والفلسفات والديانات من لغاتها الأصل إلى اللغة العربية، وهذا السبب كفيل لدخول العديد من

---

١ - يراد بمصطلح أهل السنة الاسم العام بما يقابل الشيعة، ويراد به كذلك الاسم الخاص الذي يقابل أهل الأهواء والبدع، انظر للمزيد مصطلح أهل السنة، كما بينه ابن تيمية في منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، المحقق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م،(ج ٢، ص ٢١٧ – ص ٢٢١).

الأفكار إلى الديار، وما سيتبعه من اعتناق البعض لهذه الأفكار، وبالتالي نشرها والمنافحة عنها وإدخالها في ثقافة الأمة.

وما مرده إلى الأشخاص، فمعروف أنه يوجد في كل مكان وزمان، من يعجب بالجديد أيا كان هذا الجديد، أو بسبب الانهزام الفكري لديهم، أو بسبب التركيب الفكري والنفسي لدى الكثير بتلقفهم لكل وافد أيا كان هذا الوافد.

وما كان مرده إلى نوايا البعض والنوايا لا يعلمها إلا رب النوايا فهو العليم بأسرار القلوب، وما كان بخاطري الحديث عن هذا الجانب لولا ما سطره البعض عن البعض مما سيأتي بيانه، أن بعض هؤلاء كان لهم نوايا للطعن في القرآن إما لسلب صفة الإعجاز عنه، الذي هو معجزة النبوة، وبالتالي إنكار النبوة، أو للتشكيك على أقل تقدير في إعجازه، وفي مقابل هؤلاء من كانت نيته حسنة وهي الدفاع عن القرآن، كما زعموا، وليس كل من طلب الهدى اهتدى، لكن كان هذا مقصدهم وإن أخطئوا الطريق.

وإن ممن أشار إلى أن هذا القول أي القول بالصرفة، منشأه غير بيئة الإسلام، الشيخ محمد أبي زهرة في كتابه " المعجزة الكبرى القرآن" وعزى هذا الرأي إلى البراهمة فقال: وإنَّ بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطَّلعوا على أقوال البراهمة في كتابهم "الفيدا"[١] وهو الذي يشتمل

١ - فيدا كلمة سنسكريتية تعني المعرفة أو الحكمة، وكتاب الفيدا هو كتاب الهندوس المقدس، ويتألف من أربعة أسفار، ويذهب وليم جونس إلى أن ثلاثة أسفار من الفيدا، هي الريج فيدا، والياجورا فيدا، والساما فيدا، هي أقدم أسفار الفيدا في تاريخ تأليفها، وأن أقدمها هو الريج فيدا الذي يرجع تاريخ تأليفه إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وأن السفر الرابع، أتهارفا فيدا، هو أحدثها جميها، انظر للمزيد حول هذا الفيدا كتاب للوحي معان أخرى ! هل الوحي أمر ممكن عقليا ؟ لمؤلفه د. محمد عثمان الخشت، أستاذ الأديان والفلسفة في كلية الآداب – جامعة القاهرة.

على مجموعة من الأشعار، ليس في كلام الناس ما يماثلها في زعمهم، ويقول جمهور علمائهم: إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها؛ لأنَّ براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها يقول في ذلك أبو الريحان البيروني في كتابه "ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" ما نصه: "إن خاصتهم يقولون: إنَّ في مقدورهم أن يأتوا بأمثالها، ولكنهم ممنوعون من ذلك احترامًا لها" ولم يبين البيروني وجه المنع، أهو منع تكليفي يسبقه الإيمان بهذه الكتب، وتكون دلائل وجوب الإيمان من نواحٍ أخرى، أم هو منع تكويني، بمعنى: إنَّ براهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها، والأخير هو الظاهر؛ لأنه هو الذي يتفق مع قول جمهور علمائهم، وما اشتهروا من أنَّ القول بالصرفة نبع في واديهم. [1].

ويتابع فيقول: وعندما دخلت الأفكار الهندية في عهد أبي جعفر المنصور، من والاه من حكام بني العباس، تلقَّف الذين يحبون كل وافد من الأفكار، ويركنون إلى الاستغراب في أقوالهم، فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول، ويطبقوه على القرآن، وإن كان لا ينطبق، فقال قائلهم: إن العرب إذ عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن ما كان عجزهم لأمر ذاتي من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه، بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله[2].

ويقول الرافعي: لما نجَمَت آراء المعتزلة بعد أن أقبل جماعة من شياطينها على دراسة كتب الفلسفة مما وقع إليهم عن اليونان وغيرهم

١ - أبو زهرة، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، المعجزة الكبرى القرآن، دار الفكر العربي،سنة: ١٣٩٠ - ١٩٧٠ (ج ١، ص ٥٧ + ص ٥٨).

٢ - السابق، (ج ١، ص ٥٨).

نبغت لهم شؤون أخرى من الكلام، فمزجوا بين تلك الفلسفة على كونها نظراً صرفاً، وبين الدين على كونه يقيناً محضاً... فذهب شيطانُ المتكلمين أبو إسحاق إبراهيم النَّظام إلى أن الإعجاز كان بالصرفة، وهي أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها فكان هذا الصرف خارقاً للمادة [١].

وكأنه يلمح ويشير إلى إمكانية إفادة المعتزلة من فلسفة اليونان، بالقول بالصرفة ولم يحدد أن إفادتهم من هذه المقالة من كتاب الفيدا أو الفلسفة الشرقية تحديدا، فكلامه كأنه يحتمل هذا مع أنه بحدود اطلاعي ومعرفتي عن الفلسفة اليونانية لا سيما أقطاب الفلسفة اليونانية الثلاثة: سقراط وأفلاطون وأرسطو لم يرد عنهم القول بالصرفة، وكتب الفلسفة اليونانية لم يقل أصحابها أنها منسوبة إلى أنبياء أو أن فلسفتهم فيها تحدي للبشر، فجل أمرها أنها كتب فلسفية وأصحابها فلاسفة ولم يدعو الإلهية أو النبوة، وكذلك تلامذة هؤلاء الفلاسفة لم يتحدوا أحد بالإتيان بمثلها بل درج فلاسفة اليونان على البناء على القديم والتطوير عليه، بل هناك ما يثبت من خلال بقايا تراث أولئك الفلاسفة أنه كان التلميذ يرد على أستاذه وينقده أو يبنى على ما سبقه ويطوره، على عكس ما هو عند الشرقيين، فيزعمون أن براهما أعجزهم عن الإتيان بمثل الفيدا، على خلاف وتفصيل عن ماهية هذا التحدي.

هذا وقد نفا وعزا البعض الآخر كالدكتور إبراهيم التركي عن أن يكون القول بالصرفة تأثرا من أحد لا من الشرقيين ولا من الغربيين، وكأنه

١- الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي – بيروت،الطبعة الثامنة - ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٥ م، (ص ١٠١).

لا دخل للترجمة في نشر مثل هذه الأفكار بين المسلمين، وادعى أن منشأ هذه المقالة البيئة العربية، وأن مرد هذا القول أوهامهم الخاطئة عن وجه إعجاز القرآن، مستشهدا بكلام الجرجاني في ذلك (الذي يقع في الظن من حديث القول بالصرفة، أن يكون الذي ابتدأ القول بها ابتدأه على توهم أن التحدي كان إلى أن يعبر عن أنفس معاني القرآن بمثل لفظه ونظمه، دون أن يكون قد أطلق لهم وخيروا في المعاني كلها)[1].

والجرجاني لم يجزم بهذا القول بل صرح بأنه يقع في ظنه، والدكتور التركي كذلك ذكر أنه لم يجزم بهذا، فقال قبل نقله النص الأنف الذكر " دون أن يجزم به"، فكيف يبني رأيه على ظن وتوهم الجرجاني، ويترك باقي من جزم وبين ووضح ونسب أن هذا القول قال من قال به تأثرهم من البراهمة.

وزعم أن لا أحد من القدماء أشار إلى إفادة من قال بالصرفة من البراهمة، فيقول: ويبدو الرأي الثاني – أي أن هذا القول من بيئة العرب قول خالص لا من غيرهم – في نظري هو الأقرب للصواب، نظراً لعدم ورود أي إشارة من العلماء القدامى الذين تحدّثوا عن هذه القضية تشير لا من قريب ولا من بعيد إلى كون الفكرة مستقاة من البراهمة أو من غيرهم [2].

---

١ -الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة،الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، (ج ١، ٦١١).

٢ - التركي، إبراهيم بن منصور، القول بالصرفة في إعجاز القرآن الكريم، بحث منشور على الشبكة bdf، (ص ٧).

ومما يؤكد على إفادة من قال بالصرفة من البراهمة ما ورد عن القدماء في بيان مصدر قول النظام ومن تبعه، بأنهم تأثروا بهم وعنهم نقلوا ولأفكارهم روجوا، وهذا يرد كلام الدكتور إبراهيم بأنه لا يوجد احد من القدماء عزا القول بتأثر النظام ومن تبعه على ذلك من البراهمة، ومن ذلك ما ذكره من القدماء:

ما ذكره البغدادي فقال: وأعجب – أي النظام – بقول البراهمة بإبطال النبوات ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفا من السيف فأنكر إعجاز القران في نظمه وأنكر ما روى في معجزات نبينا[١].

ومن القدماء كذلك الإسفراييني، فقال عن النظام: كَانَ يصحب ملحدة الفلاسفة [٢] وقال عنه أيضا: وَمن فضائحه – النظام – قَوْله فِي الْقُرْآن أَنه لَا معْجزَة فِي نظمه وَكَانَ يُنكر سَائِر المعجزات مثل انشقاق الْقَمَر وَأَن كَانَ قد نطق بِهِ الْقُرْآن فِي قَوْله {اقْتَرَبت السَّاعَة وَانْشَقَّ الْقَمَر} وَكَذَلِكَ كَانَ يُنكر تَسْبِيح الْحَصَى فِي يَده ونبوع المَاء من بَين أَصَابِعه وَكَانَ فِي الْبَاطِن يمِيل إِلَى مَذْهَب البراهمة الَّذين يُنكرُونَ جَمِيع الْأَنْبِيَاء فَتكلم بِهَذَيْنِ المذهبين اللَّذين يبطل أَحدهمَا حدث الْعَالم وَالْآخر يبطل ثُبُوت النُّبُوَّة وَكَانَ لَا يقدر على إِظْهَار مَا كَانَ يضمره من الْإِلْحَاد[٣].

١- البغدادي، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة – بيروت الطبعة الثانية، ١٩٧٧،

٢ - الإسفراييني، طاهر بن محمد أبو المظفر، ت ٤٧١ هـ، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، المحقق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، (ص ٧١).

٣ - السابق، ص ٧٤ .

والإيجي ذكر في كتابه المواقف عن تأثر النظام بالبراهمة وهو من القدماء، قال: النظام وهو من شياطين القدرية طالع كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة[1] وتابع عنه وعن أتباعه بتأثرهم في الفلاسفة وأنه مال في بعض المسائل إلى قول الطبيعيين، إلى أن قال: وقالوا نظم القرآن ليس بمعجز إنما المعجز إخباره بالغيب من الأمور السالفة والآتية، وصرف الله العرب عن الاهتمام بمعارضته حتى لو خلاهم لأمكنهم الإتيان بمثله بل بأفصح منه[2].

وبعد هذه النقول يتبين لنا أصل موضوع الصرفة، ومن ثم يتبين لنا كذلك أول من قال بها ممن ينتسب للمسلمين وروجها، فمصدرها البراهمة وأخذها النظام، والقدماء نسبوها له بشكل مستفيض، وعلى زعم أن النظام لم يقل بهذا لم يرد ولو نص واحد ينسب للنظام لا له ولا لتلامذته ولا لمخالفيه يقول بعكس ما نسب إليه من القول بالصرفة، فلو وجد لسطر كما سطرت أقواله الأخرى، وكما ينقل عن الكثير من الأئمة أقوالهم، ولو كانت متعددة حتى ولو في المسألة الواحدة، فهناك الكثير من أراء ومسائل لعلماء نقلت إلينا آرائهم في المسألة الواحدة ربما أكثر من خمسة أراء، فإذا لم يوجد يبقى الرأي المنسوب إليه منصوب على قدميه، حتى يأتينا ما يخالفه أو يناقضه، أو ما يرده، وإلى ذلك الوقت سيبقى ما نسب إليه منسوب.

١ - الإيجي، عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد، المواقف، دار الجيل – بيروت،الطبعة الأولى، ١٩٩٧،تحقيق: د.عبد الرحمن عميرة، (ج ٣، ص ٦٦١).

٢ - السابق، ص ٦٦٣ .

العوامل التي ساعدت على القول بالصرفة.

إن من يطالع التاريخ الإسلامي يجد أن الواقع الذي كانت تحياه الأمة في تلك الفترة الزمنية هو السبب الرئيس في هذا القول، فكان ذلك العصر بداية تقهقر الأمة الإسلامية، وبداية دخول الوهن فيها، وفي ذلك الوقت دبت الفرقة في الأمة، ونمت بذور الخلافات السياسية والمذهبية، وبرزت كذلك الفرق الإسلامية، وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

وكان ذلك العصر أيضا هو عصر ازدهار العلوم العقلية، كالفلسفة وعلم الكلام وتأثر الفرق بهما، والترويج لما احتوته هذه العلوم، ومحاولة دمجها والاتكاء عليها في العلوم الشرعية. وأيضا قد دب في الأمة داء الأمم السابقة ألا وهو الجدل، وكثرة الاختلاف على النصوص كما اختلفوا على أنبيائهم.

ومما يزيد في الأمر سوءا أن من كان يتزعم بعض الآراء وينصرها، كان ممن في يديه السلطة، ويريد أن يروج ما اقتنع به، سواء اقتنع به الناس أم لا، وبغض النظر كان ذلك صحيحا أم لا فهو سواء، كما كان من بعض العباسيين وما أحدثوه من محدثات، فقد تبنى كبراؤهم أراء محدثة ولفوا حولهم الكهنة، فعظمت المصيبة، وعمت الفتنة، وبطش السلطان ومعه الكهان بمعونة الأتباع والأعوان، كما هو معروف مما وقع على أهل السنة، كمثل ما تعرض له الإمام أحمد وغيره.

فهذه أسباب عامة أراها سبب لنشوء تلك الأفكار والتي منها القول بالصرفة، على أن هناك أسبابا خاصة أدت إلى القول بالصرفة عند من قال بها، كعقيدة وثقافة من يدعو للصرفة وغيرها.

وهنا أنقل باختصار هذه العوامل الخاصة التي أدت بالنظام للقول بالصرفة، مما سطره عبد الرحمن الشهري[1]:

فبعد أن ثبت أن النظام هو مبتدع هذه النظرية في التاريخ الإسلامي، فنقف مع الأسباب التي دفعته للقول بهذا، لأن الأقوال لا تظهر فجأة، وإنما لها أسباب خارجية وداخلية، والقول بالصرفة له أسباب عقدية وفلسفية دفعت النظام للقول بها، وجعلها وجه من وجوه الإعجاز عنده وعند من وافقه، وهذه الأسباب على النحو التالي:

أولا: أسباب عقدية: ارتبطت نشأة القول بالصرفة للمعتزلة، والنظام رأس من رؤسهم، وفرقة المعتزلة، لها أثر على النظام، الذي قال بالصرفة، حيث أن المعتزلة لهم أصول خمسة تدور فرقتهم عليها، وهي التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يكون الشخص معتزليا إلا إذا جمعها كلها، والمعتزلة قائمة على ردود الأفعال، فكل أصل هو ردة فعل على فرقة من الفرق المخالفة، وكذلك اعتمادهم المطلق على العقل، وتقديمه على النص، ولتقديمهم العقل على النص نتج عنه قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، ومعناه أن العقل قادر على التحسين والتقبيح قبل ورود الشرع، وبعضهم عزا قول النظام بالصرفة إلى هذا الأصل، فمن وجهة نظره، العقل لا يحيل العرب أن يأتوا بمثل القرآن لولا أن الله صرف هممهم، فجعل النظام ما رآه العقل حكما في هذه المسألة وهو الفصل فيها، وأمر أخر وهو تعظيم أمر المصلحة، وهي المقصد الذي يدركه العقل بعد

١ - باختصار وتصرف، انظر الشهري، د. عبد الرحمن بن معاضة، القول بالصرفة في إعجاز القرآن، دار ابن الجوزي، (ط ١، ١٤٣٢ هـ،) (ص ٤٠ – ص ٥٤).

التعليل وهي خلاصة معاني الألفاظ، وهذا يؤدي في النهاية إلى اعتبار خلاصة النصوص ومعانيها دون الالتفات إلى نظمها وأسلوبها، والنظام تنكر عن أن يكون الأسلوب والنظم معجزا، ويكون نتيجة القول بالصرفة، أن تثبت الإعجاز للمعنى دون اللفظ.

وكذلك علاقة أصل التوحيد بمفهومه عند المعتزلة، فعندهم التوحيد لأجل التنزيه هو نفي الصفات الذاتية، وتأويل الخبرية منها، وبالتالي القول بخلق القرآن على اعتبار لا صفة كلام للخالق وبالتالي هو ليس معجز، ويقولون أنه يستحيل أن يكون القرآن في مكانين في حالة واحدة، فهذا الذي نقرأه حكاية عن المكتوب في اللوح المحفوظ، وأما ما نقرأه فهم من خلقنا وفعلنا، ويقولون بأن انتقال القرآن للرسول يتغير ويلزم منه فقدان صفة الإعجاز في الألفاظ، لأنه حكاية، وبهذا قد سووا بين القرآن والحديث القدسي، ويعتبرون بلاغة القرآن غير معجزة لأنها غير صادرة من الله، بخلاف المعاني التي وقع بها الإعجاز، وهذا هو عين ولب القول بالصرفة.

أما من جمع بين القول بالصرفة والإعجاز البلاغي فهم متناقضون، لأنهم سلموا بالمقدمات وأنكروا النتيجة، وهذا لا يسلم لهم، ونقل عن الإمام أحمد تكفير من يقول أنه مقدور على مثل القرآن، بل هو معجز بذاته، وبهذا ترى ما للمعتقد من أثر في تلك المقولات.

ثانيا: ما يتعلق بثقافة النظام: فالذي ذكر في ترجمته أنه واسع الثقافة والاطلاع، وله مشاركة في عدد من العلوم، وهذا ترك أثرًا في منهجه العلمي، وكان عصره عصر ازدهار للعلوم على أنواعها، وعاصر عدد من علماء الشرع واللغة كالشافعي وأحمد والبخاري، وازدهرت كذلك علوم اليونان، وقد كان مولعا بالفلسفة واشتغاله بها دفعه للدوران حول

المعاني وتقديما على التراكيب اللفظية، فهذا هو شأن الفلسفة، وكذلك عني بالعلوم التجريبية، وهي غالبا تتجه إلى اعتبار المضامين، واهتم كذلك بعلم الحديث، وكان يقدم العقل على النقل ويرد الأحاديث لمخالفتها للعقل، وكان يتهكم على علماء الحديث، ويتهمهم بمخالفة العقل، ومن العلوم التي ازدهرت في عصره البلاغة، فالصرفة تعد أصلا لنظرية النظم التي طورها فيما بعد الجرجاني.

ثالثا: ما مرده إلى الأفكار والمذاهب المخالفة: كان النظام ممن لهم مشاركة فاعلة في الجدل مع غير المسلمين، ومع الفرق المخالفة كذلك له، واتهمه الجاحظ بأنه ينساق مع الخواطر ويبني عليها أقواله، وهذا يعني أنه يستعجل في تبني الأفكار، ولو تأنى لرجع عنها، وكذلك اتهم بأنه ينتحل مذهب الشعوبية، وهو من الموالي وليس من العرب الذين يفخرون بأن القرآن نزل بلسانهم، فسلبه لهذه الفضيلة يعد انتصارا عليهم، ومساواتهم بغيرهم وذلك بإنكار الإعجاز البلاغي للقرآن وجعل الإعجاز لمضمونه، ومعناه صرف العرب عن معارضته، الذي هو القول بالصرفة، وكذلك كان يرد على اليهود والنصارى الذين نشطوا بين المسلمين، وربما قاده ذلك إلى الشطط، وكذلك منافحته للفرق المنتسبة للإسلام، وذبه عن فرقته التي ينتسب إليها، ومن تبعه بالقول بالصرفة يشترك معه في بعض هذه الأسباب، ولأسباب أخر ربما تقليدا دون روية أو لغيرها من الأسباب.

المبحث الثالث: القائلون بالصرفة وأدلتهم وفيه:

القائلون بالصرفة:

نسب إلى القول بالصرفة أقوام، منهم من صحت إليه تلك النسبة، ومنهم من لم تصح إليه تلك النسبة، والاضطراب في نسبتها من عدمه راجع لعدة أسباب، منها على سبيل المثال: عدم التحقيق في أقوال من نسب هذا القول إلى من نسبت إليه.

ومنها إدخال أشخاص بالجملة وحملهم على القول بالصرفة كقول من قال أن المعتزلة يقولون بالصرفة، وكأن كل المعتزلة يقولون بها، مع أن التحقيق ينقض ذلك، فمن المعتزلة من ردها ومنهم من فصل وجعلها وجهًا من وجوه الإعجاز بجانب الإعجاز البياني، وإن لم نسلم لهؤلاء ما ذهبوا إليه لأنهم سلموا بالمقدمات وإن اختلفت النتائج.

وكذلك من الأسباب عدم وجود نص لمن نسبت إليه تلك الأقوال وإنما وجدت تلك النسبة في كتب المخالفين، أو وجدت في معرض الترجمة للأشخاص فذكرت أن تلك من مقالتهم واعتقادهم.

وأسباب أخرى كعدم التمحيص بمراد بعض العلماء مما وجد في كتبهم وأثارهم العلمية، ففهم خطأ أو أريد له أن يفهم كذلك، مع أن أصحابها لا يقولون بها، وكذلك أخذ بعض نصوص مما سطره العلماء في كتبهم مما يوهم قولهم بالصرفة، مع أنه يوجد نصوص صريحة ترد القول بها.

فممن نسبت إليه الصرفة من المتقدمين بل من أقدم من نسب إليه القول بالصرفة الجعد بن درهم، وواصل بن عطاء، وبشر المريسي،

والمردار كما ذكر د. حسين نصار نقلا عن علي العماري[1] أما الجعد فقال عنه العماري: ممن قال بأن الناس قادرون على مثل القرآن الجعد بن درهم... بل قال: إنهم قادرون على أحسن منه.

وقال نصار أيضا: وأعتقد أن من نسب القول بالصرفة إلى واصل قد أخطأ، لأن أحدا آخر لم يتفق معه، ولعله تأثر بما شاع من نسبة الصرفة إلى المعتزلة، فنسبها واهما إلى شيخهم الأول، وأما المريسي فقد ورد اسمه في قول ياقوت بن عبد الله الرومي أن الصرفة كانت مذهبا لجماعة من المتكلمين والرافضة، منهم بشر المريسي والشريف المرتضى، وأما المردار فقد عزا إليه الشهرستاني أنه زعم أن الناس قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظما وبلاغة وأن أصحابه تبعوه على ذلك، ونفى العماري[2] عن المردار ما عزي إليه، وذهب إلى أنه من تشنيعات الخصوم المعتزلة.

قال الشهري: ونسب كذلك إلى ابن حزم وهو الذي يفهم من كلامه في كتابه الفصل في الملل والنحل، وتحدث عنها في موضعين من كتابه، وكلامه مضطرب، فهو يقول بها مرة ويقول بغيرها أخرى، ولذلك فإنني أميل إلى ما ذهب إليه د.محمد أبو موسى من القول بأن ابن حزم لم يحكم القول في هذه المسألة[3].

---

١ - انظر، نصار، حسين، الصرفة والإنباء بالغيب، نشر مكتبة مصر، بدون ذكر رقم ط ولا سنة نشر، ص ٥

٢ - السابق، نقلا عن العماري، ص ٦ .

٣ - الشهري، القول بالصرفة في إعجاز القرآن، ص ٥٦ .

وللاختصار نتوقف عند أهم من اشتهر بالقول بالصرفة، وهم أولا: النظامية لما نسب للنظام لكونه أول من اشتهرت هذه المقولة عنه، وثانيا الجاحظ، لأنه تلميذ النظام ولأنه نسبت إليه، إضافة لتعدد الأقوال بالصرفة عنه مما سيأتي بيانه ثم نذكر رأي القاضي عبد الجبار في هذه المسألة باعتباره من أبرز شيوخ المذهب الاعتزالي. والثالث الشريف المرتضى، لأنه أبرز من قال بهذا ونصره وصنف فيه مصنفا مستقلا [١].

الموقف النظامي للصرفة:

بادئ ذي بدء نبين أن القول بالصرفة أول ما نبت في رواق الفلسفة الكلامية، قاله شيخ من شيوخها وهو النظام :(إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام البصري ت سنة ٢٢١هـ)، فهو أول من جاهر به، وأعلنه ودعا إليه، ولاحى عنه، كأنه مسألة من مسائل علم الكلام، ونقول إنه أول من جهر به، ولا نقول إنه أول من فكر فيه، أو أول من ابتدأ القول به، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهي تتكون في خلاياها، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر، ويجاهر بها [٢]. تتلمذ على خاله أبي الهذيل العلاف في الاعتزال، ثم انفرد عنه، وكون مذهبا خاصا به، مات في ريعان شبابه عن ست وثلاثين عاما، وكان أستاذا– للجاحظ– [٣]، ترجم له أبو منصور عبد القاهر البغدادي (ت ٤٢٤هـ)– في كتابه: (الفرق بين الفرق)، عند ذكره الفرقة النظامية، فقال: (عاشر النظام في شبابه قوما من الثنوية [٤] وقوما

---

١ - انظر السابق، ص ٥٧ .

٢ - أبو زهرة : المعجزة الخالدة –، ص ٧١ .

٣- زهدي حسن جار الله ::- المعتزلة - ص١٢٠-١٢٩.

٤- الثنوية : قوم يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان . الشهرستاني : الملل والنحل: ص / ٨٠ بهامش الفصل .

من السمنية [1]، وخالط قوما من ملاحدة الفلاسفة، ثم دون مذاهب الثنوية، وبدع الفلاسفة، وشبه الملاحدة في دين الإسلام، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات، ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفا من السيف، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه). ثم قال: (والفضيحة الخامسة عشرة من فضائح -أي النظام-: أن نظم القرآن وحسن تأليف كلماته، ليست بمعجزة للنبي - عليه الصلاة والسلام- ولا دالة على صدقه في دعواه النبوة، وإنما وجه الدلالة منه على صدقه، ما فيه من الإخبار بالغيوب، فأما نظم القرآن وحسن تأليف آياته، فإن العباد قادرون على مثله، وعلى ما هو أحسن منه في النظم، والتأليف)[2]، وترجم له الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨هـ) فقال: (والنظامية أصحاب إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام، طالع إبراهيم كثيرا من كتب الفلاسفة، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة، وانفرد عن أصحابه بمسائل منها: قوله في إعجاز القرآن: إنه من حيث إخباره عن الأمور الماضية، والآتية، ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، ومنع العرب من الاهتمام به جبرا، وتعجيزا، حتى لو خلاهم لكانوا قادرين على أن يأتوا بسورة من مثله، بلاغة، وفصاحة، ونظما)[3].

فالنظام-إذن- يرى: أن الله قد صرف أوهام العرب عن معارضة القرآن، أو عن القدرة على الإتيان بمثله، فانصرفوا عن ذلك، وتعذرت عليهم المعارضة، لا لأن القرآن في حد ذاته خارج عن طوق البشر، أو

١- السمنية : فرقة بوذية هندية قالت بقدم العالم وبتناسخ الأرواح - البغدادي :الفرق بين الفرق - ص٢٧٠. وخالد العلي، الجهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي ص١٣.

٢- البغدادي : الفرق بين الفرق (مرجع سابق) ص ١٢٨- ١٥٠ (بتصرف يسير).

٣ - الشهرستاني : الملل والنحل – بهامش الفصل - : ج ١ / ص٦٧ .

خارق لمقدرتهم، ومألوف عادتهم، فهو في ذلك لا يتفوق على البليغ الفصيح من كلام العرب، ولا تكاد تكون له مزية أو فضل في ذلك، ولو ترك لهم المجال، وأفسح أمامهم الطريق، لأتوا بمثل القرآن فصاحة، وبلاغة، وحسن نظم وتأليف. وقد تابع –النظام– على رأيه هذا نفر من المعتزلة، منهم: عيسى بن صبيح المكنى بأبي موسى المردار[١]، الذي نسب إليه القول بأن: (الناس قادرون على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، وبما هو أفصح منه.)[٢]، وعباد بن سليمان [٣]، وهشام الفوطي [٤] وأبي اسحق النصيبي [٥] وغيرهم.

ولهذه الآراء الشاذة، والمعتقدات الباطلة، نص كثير من العلماء، ومن المعتزلة أنفسهم –، على تكفير النظام، وفرقته .

ومع أن مفهوم –الصرفة– نشأ في البيئة الاعتزالية بادئ بدء، إلا أن ذلك لا يعني أن مفهومها عندهم جميعا كان واحدا، بل كان لها ثلاثة مفاهيم، هي:

١- عيسى بن صبيح أبو موسى المردار : - كان معروفا بالناسك، أخذ الإعتزال عن بشر بن المعتمر، تولى رئاسة المعتزلة ببغداد، (ت سنة ٢٢٦هـ). ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ص ٧٠ .

٢ - البغدادي : الفرق بين الفرق - ص١٥٤.وانظر د. عمر السلامي : الإعجاز الفني في القرآن، ص ٥٢-٦٥.

٣ - عباد بن سليمان الصخري : معتزلي من أهل البصرة من تلاميذ هشام بن عمروالفوطي كان معتزليا ثم تحول إلى مذهب الزنادقة . ابن النديم : الفهرست: ص٢٦٩، ٢٨٠ .

٤- هشام بن عمرو الفوطي : -بصري المذهب، عده القاضي في نهايةالطبقة السادسة من المعتزلة، وكان يحظى باحترام المأمون . القاضي المعتزلي : طبقات المعتزلة ص٦٩.

٥ - أبو اسحق النصيبي :- من الطبقة الحادية عشرة من المعتزلة، وكان يشك في النبوات كلها . أبو حيان التوحيدي: الامتاع والمؤانسة - ج١/ ص١٤١ .

المفهوم الأول:

وهو المفهوم النظامي الذي ينفي عن القرآن الإعجاز، ويجعله في مستوى الكلام البليغ الذي استحسنته العرب، وحظي عندها، ولا فضل للقرآن في ذلك على غيره، وكان باستطاعة العرب الإتيان بمثله، لولا أنهم صرفوا مقهورين بقوة خارجة عنهم، لا طاقة لهم على دفعها. وهو رأي مرفوض لا يعتد به، ولا يؤبه له –كما سأبين–. وقد كانت رؤوس المعتزلة أول من رفضه، ورده، ولم يتابعه عليه إلا قلة قليلة منهم . يقول الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) مفندا قول النظام، حيث قال مخاطبا أحمد بن أبي داود[١] (ت ٢٤٠ هـ): (فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي، وبلغت أقصى ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن، والرد على الطعان، فلم أدع فيه مسألة لرافضي، ولا لحديثي، ولا لحشوي، ولا لكافر مباد، ولا لمنافق مقموع، ولا لأصحاب النظام، ولمن نجم بعد النظام، ممن يزعم أن القرآن حق، وليس تأليفه بحجة، وأنه تنزيل وليس ببرهان ولا دلالة.)[٢]، فواضح من هذا النص أن النظام لو كان يعترف ولو ضمنيا بأن نظم القرآن وتأليفه معجز، لكان الجاحظ أول من يعرف ذلك، ولما تصدى لنقض صرفة النظام وردها، وإذن فمفهوم الصرفة لدى النظام، وأصحابه، ليس مجرد شعور بالعجز، وانصراف تلقائي، وإنما مفهومها أن الناس كانوا قادرين على مثل القرآن، لولا أن منعهم الله بمنع وعجز أحدثهما فيهم، لذلك لم

١ - هو أحمد بن أبي داود الملقب بأبي عبد الله القاضي، من الطبقة الثانية من طبقات المعتزلة، توفي سنة ٢٤٠ هـ . القاضي المعتزلي : طبقات المعتزلة، ص٧٨ .

٢ - الجاحظ : حجج النبوة - ص١٤٣-١٤٤.

يجد هذا المفهوم قبولا من الجاحظ، فاستنكره وتصدى لنقضه، ورده، واستنكره أيضا جمهور المسلمين، وردوا عليه ردودا منطقية مقنعة.

منها: ما رد به الفخر الرازي(ت ٦٠٦ هـ) حيث قال-:(قال النظام: إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليؤيد به النبوة، بل هو كتاب مثل سائر الكتب المنزلة، لبيان الأحكام من الحلال والحرام، وإنما لم يعارضه العرب، لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب دواعيهم عن الاعتراض، ويدل على فساد ذلك وجوه ثلاثة:

الأول: لو أن الله صرفهم عن المعارضة، وأعجزهم عنها، بعد أن كانوا قادرين عليها، لما استعظموا فصاحة القرآن، بل العكس هو الصحيح، وهو أنه يجب أن يكون تعجبهم من تعذر معارضة القرآن، بعد أن كانوا قادرين على المعارضة، وهذا يبطل ما قاله النظام.

الثاني: أن كلامهم قبل التحدي لم يكن مقاربا لفصاحة القرآن، ولو كان كذلك، لوجب أن يعارضوه بذلك، ولكن الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن، مما يبطل هذه الدعوى.

الثالث: ليس من المعقول أن ينسى العرب الفصحاء أساليبهم وصيغهم المعلومة في مدة يسيرة، لأن ذلك يدل على زوال العقل، ومعلوم أن العرب ما زالوا يحتفظون بعقولهم بعد التحدي، فبطل ما قاله النظام)[1].

ومما يجب التنبه إليه أن عددًا من الباحثين حاول أن يصرف قول الصرفة عن النظام، إما من خلال تأويل ما نسب إليه، أو من خلال نفيها

١ - الرازي : تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز - ص ٢١

عنه أصلا، فمن الباحثين من كان ينافح ويرد ما نسب إليه ويجعله من قبيل المماحكات الجدلية التي كانت تدور بين الفرق وما يتبعه من نسبة بعض الآراء إلى الأفراد كما ذكر د. منير سلطان فقال: واستعراض بعض آراء النظام تكشف عن زيف نسبة رأى الصّرفة إليه، بالصورة التي يروجها الأشاعرة عنه[1] مشيرا إلى ما ذكره الأشعري في مقالاته عن النظام ناقلا مقالته عنه: وقال النظام الآية الأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم[2] فمن خلال هذا الكلام يجعل هذه النسبة مجرد ترويج رأي من الخصوم عنه لا أكثر.

على أن هناك من أراد أن يشكك في نسبة هذا القول إلى النظام وغيره كالزرقاني فقال: إني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته ثم ليشتد عجبي وأسفي حين ينسب إلى ثلاثة من علماء المسلمين –الإسفراييني والنظام والمرتضى– الذي نرجوهم للدفاع عن القرآن ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن.!

على أنني أشك كثيرا في نسبة هذه الآراء السقيمة إلى أعلام من العلماء ويبدو لي أن الطعن في نسبتها إليهم والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم أقرب إلى العقول وأقوى في الدليل لأن ظهور وجوه

١ - سلطان، إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة، ص ٥٤

٢ - الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، دار إحياء التراث العربي، - بيروت، (ط ٣)، تحقيق: هلموت ريتر، (ج ١، ص ٢٢٥).

الإعجاز في القرآن من ناحية وعلم هؤلاء من ناحية أخرى قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأي الآثم إليهم[١].

وللباحث على هذا القول ملاحظة مهمة هي: إن رد الصرفة بنفي نسبتها إلى قائليها أمر سهل هين غير أنه محفوف بالمخاطر، فالقائل بذلك يوقع نفسه فيما كان يرجو دفعة، إذ أن نسبة هذا القول إلى القائلين به ثابتة إلى العديد من علماء المعتزلة وأهل السنة، حوتها بطون الكتب وسطرتها كتب القائلين بها، حيث صدحوا بها علانية، ونسبوها إلى أنفسهم بوضوح، وحفظ لنا هذا في الكثير من الكتب، أفيجوز لنا بعد هذا أن نطعن بالتزوير ونشكك في كل ما نقل إلينا وما سطره علماؤنا!!، فإنا إن فعلنا ذلك لم يبق لنا فيما حوته كتبنا قول تسلم نسبته لقائله وكتاب تصح نسبته لمؤلفه، وحينها يسهل على من شاء أن يقول ما شاء وينفي ما شاء، ولا حجة في السطور ولو كثرت، ولا في الأقوال ولو عن أصحابها صدرت وإلى قائليها نسبت[٢]. قال أبو زهرة عن النظام: فهو أول من جاهر به، وأعلنه ودعا إليه، ولاحى عنه، كأنه مسألة من مسائل علم الكلام، ونقول إنه أول من جهر به، ولا نقول إنه أول من فكر فيه، أو أول من ابتدأ القول به، لأن الأفكار لا يعرف ابتداؤها وهي تتكون في خلاياها، بل لا تعرف إلا بعد أن تظهر، ويجاهر بها[٣].

---

١ - الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة: ط٣ (ج ٢/ ص ٤١٩)

٢ - الخالدي، محسن سميح، الصرفة، بحث منشور، ص ٥ – ص ٦.

٣ - أبو زهرة، المعجزة الخالدة، ص ٧١.

فالنظام –إذن– يرى: أن الله قد صرف أوهام العرب عن معارضة القرآن، أو عن القدرة على الإتيان بمثله، فانصرفوا عن ذلك، وتعذرت عليهم المعارضة، لا لأن القرآن في حد ذاته خارج عن طوق البشر، أو خارقا لمقدرتهم، ومألوف عادتهم، فهو في ذلك لا يتفوق على البليغ الفصيح من كلام العرب، ولا تكاد تكون له مزية أو فضل في ذلك، ولو ترك لهم المجال، وأفسح أمامهم الطريق، لأتوا بمثل القرآن فصاحة، وبلاغة، وحسن نظم وتأليف[1].

المفهوم الثاني:

وهو الذي عرف في البيئة الاعتزالية، بمفهوم الجاحظ، والرماني– لها، وهو مفهوم لا يقدح في بلاغة القرآن، ولا ينكر تفوقه، بل هو يقر بهذا الإعجاز، ويعترف به، ويحس أن ما جاء به القرآن الكريم خارج عن طوق البشر ومقدورهم، فالصرفة عند الجاحظ ضرب من التدبير الإلهي، والعناية الربانية، جاءت لمصلحة المسلمين[2]. حتى يحفظ القرآن من عبث العابثين، وتشكيك المشككين، الذين يمكنهم أن يخدعوا الناس، ويزوروا أمامهم الحقائق، وقد صرف الله نفوس القوم عن معارضة القرآن، لا لأنهم قادرون على مثله والله منعهم من ذلك كما قال– النظام–، ولكن لئلا يكون لأهل الشغب وضعاف الإيمان متعلق للطعن والتشكيك، وإفساد عقائد ذوي النفوس المريضة، يقول الجاحظ: (ومثل ذلك ما رفع من أوهام العرب، وصرف نفوسهم عن المعارضة للقرآن، بعد أن تحداهم بنظمه،

١ - حسن، د. سامي عطا، الصرفة دلالتها لدى القائلين بها وردود المعارضين لها، بحث منشور على الشبكة، ص ١٠

٢ - الجاحظ: الحيوان: - ج٤ ص٨٥-٨٩.

ولذلك لم نجد أحدا طمع فيه، ولو طمع فيه لتكلفه، ولو تكلف بعضهم ذلك، فجاء بأمر فيه أدنى شبهة، لعظمت القضية على الأعراب، وأشباه الأعراب، والنساء، وأشباه النساء، ولألقى ذلك للمسلمين عملا، ولطلبوا المحاكمة والتراضي ببعض العرب، ولكثر القيل والقال)[١]. ويذكر الجاحظ هذا المفهوم للصرفة في موضع آخر من كتابه الحيوان، فيقول: (وذكرنا من صرف أوهام العرب عن محاولة معارضة القرآن، ولم يأتوا به مضطربا، ولا ملفقا، ولا مستكرها، إذ كان في ذلك لأهل الشغب متعلق)[٢].

ومن الواضح أن الصرفة عند الجاحظ بمفهومها هذا، لا ينفي عن القرآن روعته البلاغية، ودرجته العالية في سلم الفصاحة، والبيان، وقد أكد الجاحظ هذه الحقيقة أكثر من مرة، فذهب إلى أن وجه الإعجاز في القرآن، إنما هو النظم والتأليف، وأن القرآن الكريم بلغ القمة في روعة نظمه، والذروة العظمى من البلاغة التي لم يعهد مثلها في تراكيبهم، وتقاصرت عنها درجات بلاغتهم، وقال واصفا بيان القرآن: (وعبت كتابي في خلق القرآن، كما عبت كتابي في الرد على المشبهة، وعبت كتابي في أصول الفتيا والأحكام، كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن، وغريب تأليفه، وبديع تركيبه)[٣].

فهناك فرق بين مفهومي النظام، والجاحظ للصرفة، فالنظام: يرى قدرة المنشئين على أن ينظموا مثل القرآن، والإعجاز في صرف الله لهم

١- الجاحظ : الحيوان - ج٦ ص٢٩٦ .
٢- الجاحظ : الحيوان -ج٤/ ص٩٠.
٣ - الجاحظ : الحيوان – ج١ / ص ٩

عن هذا الصنيع. أما الجاحظ: فلم يستعمل الصرفة بمفهومها النظامي الذي سبق أن أنكره عليه، وإنما استعملها بمفهوم آخر، لا يتنافى والقول بإعجاز القرآن بالنظم . فانصراف العرب عن معارضة القرآن، إنما وقع بعد أن تحداهم الرسول ﷺ بنظمه، وهي لذلك ليست تعني أن الله أحدث فيهم منعا، وعجزا، وإنما تعني أن له تعالى تدبيرا، حفظ به القرآن من شغب المعاندين، فصرف أوهامهم ونفوسهم، عن كل محاولة لمعارضة القرآن، لما قد يدخل بذلك من الشبه على ضعاف العقول، ولما قد ينشأ عنه من الفتنة .

ومما يدل على أن الجاحظ لم يكن يحس بأي تعارض بين الصرفة بهذا المفهوم وبين نظرية النظم، أنه جمع بين النظريتين في مكان واحد، فبعد أن انتهى من تقرير مبدأ الصرفة، قال :(وفي كتابنا المنزل الذي يدل على أنه صدق، نظمه البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مع ما سوى ذلك من الدلائل التي جاء بها من جاء به)[1]. فكلام الجاحظ ينص على أن الذي أعجز العرب، هو نظم القرآن البديع، وأن النظم هو الذي تحداهم به الرسول ﷺ. أما حديثه عن صرف الله لهمم العرب عن محاولة محاكاته، فهو يبرز معنى فيه منة امتن الله بها على المسلمين، حين لم يتكلف بعض المتكلفين معارضة القرآن، ولو فعل ذلك بعضهم، فليس المخوف عندئذ أن يأتي بكلام من مثله، فذلك مستحيل بنص كلام الجاحظ السابق، ولكن المخوف هو أن يأتي بكلام ينخدع به بعض الضعفاء، ويتعلقون به، كما تعلق أصحاب مسيلمة بما ألفه لهم من هراء، وعندئذ يحدث ما يشوش على القرآن، عندما يوجد من يستجيد ما ادعي

١- للجاحظ : الحيوان، ج٤/ ص ٩٠ .

أنه معارضة له، فيدافع عنه، ويزعم أنه قد عارض، وقابل، وناقض، فيكثر القيل والقال، فكان هذا التدبير الإلهي، لئلا يكون لأهل الشغب متعلق يتعلقون به[١]. فلم يكن إذن تناقض، أو اضطراب في رأي الجاحظ، في إعجاز القرآن – على حد قول الأستاذ نعيم الحمصي[٢]، أو الإمام مصطفى صادق الرافعي [٣]– بل هو في نظره رأي مستقيم، ونظرية سليمة [٤]، لأن علة العجز في نظره – أي الجاحظ – كائنة في نظام الكلام، ومخرجه من لفظه وطابعه، وأن العرب قد تبين لهم ذلك واستيقنوه، وأنهم عجزوا عجز من يعرف علة عجزه، وليس عجز المتحير المصروف[٥]. والصرفة عند الرماني (أبو الحسن بن عيسى بن علي بن عبد الله ت ٣٨٤هـ): تشبه الصرفة عند الجاحظ، فهي لا تقدح في بلاغة القرآن، وحسن تأليفه، فقد ذكر الرماني أن القرآن في أعلى مراتب البيان، ولا يدانيه شيء من كلام فصحاء العرب، وبلاغييهم، فهو مقتنع بإعجاز البلاغة القرآنية، التي لولاها لجاءوا بمثله. يقول الرماني: (وأما الصرفة: فهي صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم، في أن القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج

١- د. عبد الغني محمد سعد بركة : الإعجاز القرآني، وجوهه وأسراره، ص ٦٢ . والسيوطي : الإتقان ج٤ / ص ٦ .

٢- د. نعيم الحمصي : : تاريخ فكرة إعجاز القرآن، ص ٥٣ .

٣- مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرأن، ص ١٦٤-١٦٥.

٤- د. أحمد أبو زيد : المنحى الإعتزالي في البيان وإعجاز القرآن، ص ٢٦٩.

٥- د. محمد محمد أبو موسى: الإعجاز البلاغي، ص ٣٦٠ .

عن العادة، كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز، التي يظهر منها للعقول)[1].

المفهوم الثالث:

وأما المفهوم الثالث للصرفة عند المعتزلة، فهو : مفهوم القاضي عبد الجبار (قاضي القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل بن عبد الله الهمداني ت٤١٥هـ) وقد خالف فيه جميع من تقدموه ممن تحدثوا عنها، ولم يرض عن تفسيراتهم، فقد أبعد مفهوم الجبرية، الذي ساد في حديث – النظام – والجاحظ– والرماني – عنها، لأنها كانت عندهم جميعا، شيئا خارجا عن إرادة القوم، مجبورين عليها جبرا [2]. وقدم بين يدي ذلك أدلة منها:

أولا: لو كانوا ممنوعين من الإتيان بكلام فصيح، أو قول بليغ، لكان ذلك لا يختص بكلام دون كلام، وأنه لو حصل ذلك في ألسنتهم، لما أمكنهم الكلام المعتاد، ولكن القوم ظلوا يتكلمون، ويأتون بالقول الفني الممتاز، ولم ينحدر مستوى بيانهم، أو يهبط، ولكنه كان –على علوه–، لا يرقى إلى مستوى القرآن.

ثانيا: ولو ثبت هذا المنع، لكان في حد ذاته هو المعجز، وليس القرآن، فإن من سلك هذا المسلك في القرآن، يلزمه أن لا يجعل له مزية ألبتة .

ثالثا: ولو ثبت هذا المنع بأية صورة من صوره، لبطل بعض القرآن، ولما كان صحيحا قوله تعالى:– (قل لئن اجتمعت الإنس والجن

---

١ – الرماني : النكت في إعجاز القرآن ، ص ١١٠ .

٢- د. وليد قصاب : التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة ص/ ٣٢٠ .

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[١].

رابعا: القول بالصرفة يتعارض مع الآية السابقة، لأنه لا يقال في الجماعة إذا امتنع عليها الشيء : إن بعضها يكون ظهيرا لبعض، لأن المعاونة، والمظاهرة، إنما تمكن مع القدرة، ولا تصح مع العجز، والمنع)[٢]. وبعد أن قدم –القاضي عبد الجبار– هذه الأدلة التي نقض بها مفهوم من تقدموه عن –الصرفة–، توصل القاضي إلى مفهوم جديد للصرفة، وهو في هذه المرة يرتبط بالقوم أنفسهم، وليس شيئا خارجا عنهم، أو مفروضا عليهم فرضا، وهذا المفهوم هو: (أن دواعيهم انصرفت عن المعارضة، لعلمهم بأنها غير ممكنة، على ما دللنا عليه، ولولا علمهم بذلك، لم تكن لتنصرف دواعيهم، لأنا نجعل انصراف دواعيهم تابعا لمعرفتهم بأنها متعذرة ...)[٣]. فهي صرفة تشبه اليأس الذي يعتري الإنسان من أمر ما حاوله عدة مرات، وكان يمنى كل مرة بالإخفاق الذريع، فإذا بعزيمته تتثبط، وهمته تنهار، وذلك كان شأن القوم مع القرآن، فلم يكن تركهم للمعارضة لأمر خارجي، وإنما لإحساسهم باليأس، وتيقنهم من العجز عن الإتيان بمثل القرآن، ثم ينهي–القاضي– حديثه عن مفهومه للصرفة، فيقول: (فالصحيح ما قلناه، من أنهم علموا بالعادة تعذر مثله، فصار علمهم صرفا عن المعارضة)[٤]. فالصرفة بهذا المفهوم

---

١ - سورة الإسراء، آية / ٨٨.

٢- القاضي عبد الجبار : المغني ج ١٦/ ص٣٢٤ .

٣- المغني (مرجع سابق) ج١٦ / ص ٣٣٤ .

٤ - المغني : (مرجع سابق) ج١٦ / ص ٣٢٥، والقاضي عبد الجبار : شرح الأصول الخمسة ، ٥٨٦-٥٨٩.

الجديد عند القاضي عبد الجبار، ليست تلك الصرفة التي عند النظام، أو الجاحظ، والتي تعني: القهر، والجبر، إنما هي صرفة ذاتية، فهم أدركوا بالفطرة، أن أسلوب القرآن في علوه وسموه، وروعة نظمه وبيانه، لا يمكن مجاراته، ومعارضته، فانصرفوا ذاتيا بلا قهر، أو جبر من قوة خارجية عن المعارضة، اقتناعا منهم ويقينا بالعجز، أي أن العقل فكر وجرب، ثم اقتنع بأن إدراكاته التي وصل إليها، تمنعه من الإتيان بمثل هذا القرآن، فالأمر في الحقيقة: انصراف، وليس صرفة[1].

الشريف المرتضى.

لا تقل شهرة نسبة الصرفة للشريف المرتضى، كما اشتهرت للنظام، بل مما يزيد الشريف المرتضى على النظام، أن النظام نسبت إليه وشاعت عنه في الكتب والمصنفات ولم يترك لنا أثرا علميا دونه بنفسه، على العكس مما هو الحال مع المرتضى فقد ألف وكتب ودون فيها، بل صنف مصنفا مستقلا في الصرفة سماه: الموضح عن جهة إعجاز القرآن "الصرفة" وهو مطبوع وله تحقيقات منها بتحقيق: محمد رضا الأنصاري القمي.

ذكر د.حسين نصار أنه لم يصل إلينا من أقوال المرتضى في الصرفة إلا عبارتان، دارت الأولى في جميع الكتب التي ذكرت مذهبه، وتصرح أنه قال: إن الله سلب العرب العلوم التي لا بد منها في المعارضة، وعثر عبد العليم الهندي على الثانية، في رسالة للمرتضى، لا تزال مخطوطة محفوظة في مكتبة برلين، واحتج فيها المرتضى على

---

١ - د. وليد قصاب : ، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، (مرجع سابق) ص ٣٢٠-٣٢٣ . بتصرف .

الصرفة، بأن الفرق بين السور الصغيرة وأحسن كتابات العرب ليس واضحا لكل أحد، بالرغم من أن الفرق بين الجيد من كلام العرب والرديء واضح، وإذن فقد صرف الله العرب عن الإتيان بمثل القرآن[١].

وبالرجوع إلى كتاب المرتضى نفسه الذي ألفه مستقلا بالصرفة، تجد كثيرًا من النصوص التي فيها تصريح بالقول بالصرفة فمثلا يقول: والصرفة على هذا إنما كانت بأن يسلب الله تعالى كل من رام المعارضة وفكر في تكلفها في الحال العلوم التي يتأتى معها مثل فصاحة القرآن وطريقته في النظم[٢] هذا وقد عقد فصلا لبيان صرف الله تعالى العرب عن المعارضة[٣].

وفرق نعيم الحمصي بين رأي النظام والمرتضى في الصرفة فيما نقله عنه نصار: فالصرفة عند النظام عدم معارضة العرب للقرآن مع قدرتهم عليها، وعند المرتضى مع عدم قدرتهم عليها، لأنهم سلبهم الله مقوماتها وما يساعدهم عليها من المعارف، بعد أن كانت متأصلة فيهم[٤].

وعلق الرافعي على قول المرتضى بقوله: وقال المرتضى من الشيعة: بل معنى الصرفة أن الله سلبهم العلوم التي يُحتاج إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن. فكأنه يقول إنهم بلغاء يقدرون على مثل النظم والأسلوب ولا يستطيعون ما وراء ذلك مما لبسته ألفاظ القرآن من

---

١ - نصار، الصرفة والإنباء بالغيب، ص ٢٢.

٢ - المرتضى، علي حسين الموسوي، الموضح عن إعجاز القرآن الصرفة، بدون ذكر دار النشر ولا سنة الطبع ولا البلد – وأظنه طبع في إيران -، بتحقيق: محمد رضا الأنصاري القمي، ص ٣٦

٣ - السابق ص ٩٣

٤ - نصار، الصرفة والإنباء بالغيب، ص ٢٣ .

المعاني؛ إذ لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم، وهذا رأي بيِّن الخلط كما ترى[1].

إلا أن الحمصي خطأ الرافعي في تفسيره لرأي المرتضى، بما نقله عنه نصار: وقوله أن العرب لم يكونوا أهل علم ولا كان العلم في زمنهم، وأعلن: إذا كانوا كذلك فإذن لم يسلبهم الله شيئا؟ وإذن فأين الصرفة؟ ورجح أن سبب هذا الخطأ أن الرافعي فهم من معنى العلوم غير ما قصده المرتضى منها وهي العلوم المساعدة على نظم الكلام، وكذلك خطأ عبد العليم الهندي بقوله "إن الشريف المرتضى ربما كان آخر من قال في الإعجاز بالصرفة وحدها، فقال "حقا إن أكثر من قال بها بعده جمعها مع النظم، ولكن الخفاجي مثلا قال بها وحدها[2].

وقد حاول محمود شاكر أن يبين وجه الصرف الذي قصده النظام، كما نقله عنه الشهري[3]، فذكر أن العجز عن معارضة القرآن كالعجز عن الإتيان بأي معجزة سابقة، وأن للعجز عن معارضة القرآن ثلاث مراحل: مرحلة العجز الأولى عن أفعال خارجة عن طاقة البشر... ومرحلة العجز الثانية التي خلقها الله في نفوس الخلف عن معارضة القرآن... ومرحلة العجز الحادث عند محاولة معارضة القرآن.

١ - الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص ١٠١ .

٢ - نصار، الصرفة والإنباء بالغيب، ص ٢٣ .

٣ - باختصار، الشهري، القول بالصرفة في أعجاز القرآن، ص ٥٨ - ص ٥٩ .

أدلة القائلين بالصرفة.

مما يجب التنبه إليه أن من قال بالصرفة لا يوجد له دليل نقلي، وإنما جل ما اعتمدوا عليه في إقامة صرح مذهبهم هو أدلة عقلية، كما ذكر الرماني فقال: القرآن معجز من جهة صرف الهمم عن المعارضة، وذلك خارج عن العادة، كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر فيها للعقول[١].

فهذا الذي ذكره الرماني حجته تظهر للعقول، على أن هناك تعليلاً عقليًا أخر ذكره الباقلاني في معرض رده على من قال بالصرفة، من أنه من أمكنه نظم كلمتين ومن ثم مثلها إلى أن ينظم قدر أية أو سورة، فقال: فلم زعمتم أنّ البلغاء عاجزون عن الإتيان بمثله مع قدرتهم على صنوف البلاغات، وتصرفهم في أجناس الفصاحات، وهلا قلتم من قدر على هذه الوجوه البديعة بوجه من هذه الطرق الغريبة، كان مثل نظم القرآن قادراً، وإنما يصرفه الله عنه ضرباً من الصرف أو يمنعه من الإتيان بمثله، ضرباً من المنع أو تقصر دواعيه إليه دونه مع قدرته عليه، ليتكامل ما أراده الله من الدلالة، ويحصل ما قصده من إيجاد الحجة، لأنّ من قدر على نظم كلمتين بديعتين، لم يعجز عن نظم مثلها، وإذا قدر على ذلك قدر على ضم الثانية إلى الأولى، وكذلك الثالثة، حتى يتكامل قدر الآية والسورة[٢].

---

١ - الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص ١١٠.

٢ - الباقلاني، محمد بن الطيب أبو بكر، إعجاز القرآن، دار مصر للطباعة، نشر مكتبة مصر، ٢٠١٣ م، تحقيق: أبو بكر عبد الرزاق، ص ٤٦ .

وقد بين البلخي موضحا لمذهب القائلين بالصرفة وحجتهم في ذلك، فيقول: واحتج الذين ذهبوا إلى أن نظمه – يعني القرآن – ليس بمعجز، إلا أن الله تعالى أعجز عنه، فإنه لو لم يعجز عنه لكان مقدورا عليه، بأنه حروف قد جُعل بعضها إلى جنب بعض، وإذا كان الإنسان قادرا على أن يقول الحمد فهو قادر على أن يقول الله، ثم كذلك القول في كل حرف، وإذا كان هكذا فالجميع مقدور عليه، لولا أن الله تعالى أعجز عنه[1].

ويقول الشهري [2]إذا فقد تأسس القول بالصرفة على ما يأتي:

١ – من حيث المفردات...

٢ – أسلوب القرآن في التراكيب هو أسلوب العرب، لكنه جاء على أسلوب النثر...

٣ – العرب في أيام نزول القرآن كانوا قد قطعوا جميع المسافات في نضج اللسان العربي... أمام الحقائق السابقة، وهي التطابق التام بين العربية عند أهلها، وبين عربية القرآن، فكيف عجز العرب –وهم أهل الكلام فيها على السليقة، وهم واضعو العربية مفردات وتراكيب– عن الإتيان بمثله؟ هذا هو الدليل الذي استند عليه القائلون بالصرفة مذهبا رئيسيا في إعجاز القرآن وعجز العرب عن معارضته، وهذا دليل ينسجم مع المذاهب الكلامية...

١ - المرتضى، الموضح عن إعجاز القرآن الصرفة، ص ١٢ .

٢ - باختصار، انظر الشهري، القول بالصرفة في إعجاز القرآن، ص ٧٧ .

القائلون بالصرفة من أهل السنة:

قد يستغرب كثير من الباحثين عندما يقرأ أن بعض كبار علماء أهل السنة يقولون بالصرفة بمفهوميها النظامي، أو الجاحظي، يقول الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم (ت٥٤٨هـ) أثناء حديثه عن أبي الحسن الأشعري: (والقرآن عنده معجز من حيث البلاغة، والنظم، والفصاحة، إذ خير العرب بين السيف وبين المعارضة، فاختاروا أشد القسمين اختيار عجز عن المقابلة، ومن أصحابه من اعتقد أن الإعجاز في القرآن من جهة صرف الدواعي، وهو المنع من المعتاد)[١].

وقال الشيخ السفاريني: محمد بن أحمد(١١٨٩هـ): (وفي شفاء أبي الفضل القاضي عياض بعض ميل للقول بالصرفة، فإنه قال: وذهب الشيخ أبو الحسن(الأشعري) إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، ويقدرهم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا، ولا يكون، فمنعهم الله هذا، وعجزهم عنه)[٢].

ومن علماء أهل السنة من يقول بالصرفة –على سيل الفرض والاحتمال: كالرازي، وابن كثير، ومنهم من عدها وجها من وجوه الإعجاز، مثل: الاسفراييني، والراغب الأصفهاني، والماوردي، وابن حزم الأندلسي الظاهري، وإمام الحرمين، والغزالي .

ومنهم من تضاربت أقواله بين القول بالصرفة، أو نفيها، مثل: ابن تيمية، وابن القيم.

---

١ - الشهرستاني : الملل والنحل، بهامش الفصل ، ج١/ ص ١٣٥- ١٣٦ .

٢ - محمد بن أحمد السفاريني: لوامع الأنوار البهية، ج١/ ص ١٧٥. والملا علي القاري: شرح الشفاء ج١/ ص ٥٥٠

فالرازي (محمد بن عمر بن الحسين بن علي الملقب بفخر الدين ت٦٠٦هـ) يقول بها مرة في السور القصار، منعا من المكابرة، والتهمة في الدين، ويطلق القول بها ثانية على عمومه بلا تحديد، ففي تفسيره (لآية التحدي) في سورة البقرة، يقول: (الطريق الثاني، أن نقول: القرآن لا يخلو إما أن يقال: إنه كان بالغا في الفصاحة إلى حد الإعجاز، أو لم يكن كذلك، فإن كان الأول: ثبت أنه معجز، وإن كان الثاني: كانت المعارضة على هذا التقدير ممكنة، فعدم إتيانهم بالمعارضة، مع كون المعارضة ممكنة، ومع توفر دواعيهم على الإتيان بها، أمر خارق للعادة، فكان ذلك معجزا، فثبت أن القرآن معجز على جميع الوجوه، وهذا الطريق عندنا أقرب إلى الصواب)، فههنا أطلق القول، ولم يحدد ذلك بسورة معينة، ثم يقول بعد ذلك: (فإن قيل: قوله (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر، وسورة العصر، وسورة (قل يأيها الكافرون)، ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله، أو بما يقرب منه ممكن، فإن قلتم: إن الإتيان بأمثال هذه السور خارج عن مقدور البشر، كان ذلك مكابرة، والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق التهمة إلى الدين، قلنا: فلهذا السبب اخترنا الطريق الثاني، وقلنا: إن بلغت هذه السورة في الفصاحة إلى حد الإعجاز، فقد حصل المقصود، وإن لم يكن الأمر كذلك، كان امتناعهم عن المعارضة – مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره –معجزا، فعلى هذين التقديرين يحصل المعجز)[1]. بينما يقول في مقدمة كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز): (والدليل على كون القرآن معجزا: أن الرسول ﷺ دعا

١ ـــ الرازي : مفاتيح الغيب،ج١/ ص ١١٦-١١٧، ومحسن عبد الحميد: الرازي مفسرا، ص ٢٣٣-٢٣٤ .

العرب وتحداهم إلى معارضته، ولكنهم عجزوا عن ذلك، ولولا عجزهم، ما تركوا المعارضة، ليعرضوا أنفسهم لأطراف الأسنة، ويقتحموا موارد الموت، ولما آثروا القتال على الكلام)[١].

ويراها ابن كثير (الحافظ عماد الدين إسماعيل ابن كثير ت ٧٧٤هـ) صالحة على سبيل التنزل، والمجادلة، والمنافحة عن الحق، فقال في تفسيره وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة، وقول المعتزلة في الصرفة، فقال: إن كان القرآن معجزا في نفسه لا يستطيع البشر الإتيان بمثله، ولا في قواهم معارضته، فقد حصل المدعى وهو المطلوب، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله، ولم يفعلوا مع شدة عداوتهم له، كان ذلك دليلا على أنه من عند الله، لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك، وهذه الطريقة –وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا – إلا أنها تصلح على سبيل التنزل، والمجادلة، والمنافحة عن الحق، وبهذه الطريقة أجاب الرازي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار، كالعصر، وإنا أعطيناك الكوثر)[٢].

أما أبو إسحاق الاسفراييني (إبراهيم بن محمد بن إبراهيم ت ٤١٨هـ) فقد عدها وجها من وجوه الإعجاز، قال في شرح المواقف – أثناء حديثه عن وجوه إعجاز القرآن–: (وقيل: إعجازه بالصرفة، على معنى أن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة، لكن الله صرفهم عن

١- الرازي: - تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ص ٢١ . ومفاتيح الغيب : ج١٧/ ص١٩٥ .

٢- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ، ج١/ ص٦٠ .

معارضته، واختلف في كيفية الصرف، (فقال الأستاذ) أبو إسحاق منا، (والنظام) من المعتزلة، (صرفهم الله عنها مع قدرتهم) عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها، مع كونهم مجبولين عليها، خصوصا عند توفر الأسباب الداعية في حقهم، كالتقريع بالعجز، والاستنزال عن الرياسات، والتكليف بالانقياد، فهذا الصرف خارق للعادة، فيكون معجزا)[1].

وعدها الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد ت ٤٢٥هـ) كذلك وجها من وجوه الإعجاز، فقال: (اعلم أن إعجاز القرآن ذكر من وجهين، أحدهما: إعجاز يتعلق بنفسه، والثاني: بصرف الناس عن معارضته، إلى أن يقول: فلما دعا الله أهل البلاغة والخطابة، الذين يهيمون في كل واد من المعاني –بسلاطة لسانهم– إلى معارضة القرآن، وعجزوا عن الإتيان بمثله، ولم يقصدوا لمعارضته، فلم يخف على ذوي البلاغة أن صارفا إلهيا صرفهم عن ذلك، وأي إعجاز أعظم من أن يكون كافة البلغاء عجزوا في الظاهر عن معارضة مصروفة في الباطن عنها.)[2]

وقال في جامع التفاسير: (فلما رئي أهل البلاغة والخطابة الذين يهيمون في كل واد من المعاني بسلاطة ألسنتهم، وقد دعا الله جماعتهم إلى معارضة القرآن، وعجزهم عن الإتيان بمثله، وليس تهتز غرائزهم ألبتة للتصدي لمعارضته، لم يخف على ذي لب أن صارفا إلهيا يصرفهم عن ذلك، وأي إعجاز أعظم من أن تكون كافة البلغاء مخيرة في الظاهر أن يعارضوه، ومجبرة في الباطن عن ذلك)[3].

١- القاضي عضد الدين الإيجي : شرح المواقف ج٨ / ص ٢٤٦ .

٢- السيوطي: معترك الأقران في إعجاز القرآن، ج١/ ص ٥-٦ . والإتقان في علوم القرآن ج٤/ ص١٠-١٢ . والراغب الأصفهاني : : مفردات ألفاظ القرآن، ص٧-١٥ .

٣- الراغب الأصفهاني : مقدمة جامع التفاسير مع تفسير الفاتحة ومطالع البقرة ص ١٠٩ . وانظر علوم القرآن عند المفسرين، ج٢/ ص٤٠٢-٤٠٣.

وقال الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد ت ٤٥٠هـ) بالصرفة: فبعد أن ذكر وجوه إعجاز القرآن في كتابه –أعلام النبوة– قال:(الوجه العشرون من أوجه إعجازه: الصرفة عن معارضته، واختلف من قال بها: هل صرفوا عن القدرة على معارضته مع دخوله في مقدورهم ..؟ على قولين:

أحدهما: إنهم صرفوا عن القدرة، ولو قدروا لعارضوا.

والقول الثاني: إنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم.

والصرفة إعجاز على القولين معا، في قول من نفاها ومن أثبتها، فخرقها للعادة فيما دخل في القدرة، ثم يقول: فإذا ثبت إعجاز القرآن من هذه الوجوه كلها، صح أن يكون كل واحد منها معجزا، فإذا جمع القرآن سائرها كان إعجازه أقهر، وحجاجه أظهر، وصار كفلق البحر، وإحياء الموتى، لأن مدار الحجة في المعجزة إيجاد ما لا يستطيع الخلق مثله)[1].

وقال في تفسيره النكت والعيون: (فأما إعجاز القرآن الذي عجزت به العرب عن الإتيان بمثله، فقد اختلف العلماء فيه على ثمانية أوجه، إلى أن يقول: والثامن: أن إعجازه هو الصرفة، وهو أن الله تعالى صرف هممهم عن معارضته، مع تحديهم أن يأتوا بسورة من مثله، فلم تحركهم أنفة التحدي، فصبروا على نقص العجز، فلم يعارضوه، وهم فصحاء العرب، مع توفر دواعيهم على إبطاله، وبذل نفوسهم في قتاله، فصار بذلك معجزا لخروجه عن العادة كخروج سائر المعجزات عنها . واختلف من قال بهذه الصرفة على وجهين:

أحدهما: أنهم صرفوا عن القدرة عليه، ولو تعرضوا لعجزوا عنه.

---

١ - الماوردي: أعلام النبوة - ص ٨٥-٨٦ .

والثاني: أنهم صرفوا عن التعرض له، مع كونه في قدرتهم، ولو تعرضوا له لجاز أن يقدروا عليه. فهذه ثمانية أوجه، يصح أن يكون كل واحد منها إعجازا، فإذا جمعها القرآن، وليس اختصاص أحدها بأن يكون معجزا بأولى من غيره، صار إعجازه من الأوجه الثمانية، فكان أبلغ في الإعجاز، وأبدع في الفصاحة والإيجاز)[1].

ومن القائلين بالصرفة ابن حزم الظاهري (علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي ت ٤٥٦هـ): ومما قاله في الفصل في الملل والأهواء والنحل: (والنحو الرابع: ما وجه إعجازه ..؟ فقالت طائفة: وجه إعجازه كونه في أعلى مراتب البلاغة، وقالت طوائف: إنما وجه إعجازه أن الله منع الخلق من القدرة على معارضته فقط، فأما الطائفة التي قالت: إنما إعجازه لأنه في أعلى درج البلاغة، فإنهم شغبوا في ذلك، بأن ذكروا آيات منه، مثل قوله تعالى: (ولكم في القصاص حياة)[2] ونحو هذا، وموه بعضهم بأن قال: لو كان كما تقولون من أن الله تعالى منع من معارضته فقط، لوجب أن يكون أغث ما يمكن أن يكون من الكلام، فكانت تكون الحجة بذلك أبلغ). وبعد رده على هذين الدليلين قال: (فلا بد لهم من هذه الخطة، أو من المصير إلى قولنا: إن الله منع من معارضته فقط).

وقال: (فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلا، وأن الله منع الناس من مثله، وكساه الإعجاز، وسلبه جميع كلام الخلق)، ثم قال في آخر كلامه:- [والحق من هذا هو ما قاله الله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله...)[3] وأن كل

١ - الماوردي : تفسير النكت والعيون، ج١/ ص ٣٠- ٣١،

٢ - سورة البقرة / آية ١٧٩.

٣ - سورة الإسراء، آية / ٨٨ .

كلمة قائمة المعنى، يعلم إذا تليت أنها من القرآن، فإنها معجزة، لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبدا، لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك][1].

ولو تأملنا قول ابن حزم السابق (منع الناس عن مثله وكساه الإعجاز) نجده كلاما فيه تناقضا، لأنه لا معنى لأن يكسوه الله الإعجاز، إذا كان عجز البشر عنه منعا منه سبحانه، وما دام الوجه هو منع الناس، فلا يوصف النظم بالإعجاز، لأن المعجز هو منع الناس عن الإتيان بمثله، فالمنع يخلع صفة الإعجاز عن النظم، وينقلها إلى المنع .

وقال بها كذلك: إمام الحرمين(أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني ت٤٧٨هـ)، فبعد أن قرر في كتابه –الإرشاد–[2] أن وجه الإعجاز في القرآن هو (اجتماع الجزالة مع الأسلوب، والنظم المخالف لأساليب كلام العرب، فلا يستقل النظم بالإعجاز على التجريد، ولا تستقل الجزالة أيضا، ثم الإخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية)، ويناقض رأيه معلنا: أن وجه الإعجاز هو: الصرفة فقال: (وقد أكثر الناس في وجه إعجاز القرآن، وتقطعوا فيه أيادي سبأ، وصار معظم الناس إلى أن القرآن تميز على صنوف الكلام بمزية البلاغة والجزالة، خارج عن المعتاد في ذلك، ثم زعم زاعمون: أن إعجازه في شرف جزالته، وذهب آخرون: إلى أن إعجازه في الجزالة الفائقة، وأسلوبه الخارج عن أساليب النظم والنثر، والخطب، والأراجيز، ثم يقول:– من رام أن يثبت إعجاز القرآن بأنه في جزالته خارق للعادات، مجاوز لفصاحة اللدد البلغاء، واللسن الفصحاء،

١- ابن حزم: الفصل، ج٣/ ص١٧-٢١ . وانظر د. مصطفى مسلم : مباحث في إعجاز القرآن، ص ٦٣.

٢- الجويني: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، ص ٣٤٩.

فقد حاد عن مدرك الحق)، ثم يقرر الجويني: أن عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن كان بسبب الصرفة، فيقول: (فتبين قطعا أن الخلق ممنوعون عن مثل ما هو من مقدورهم، وذلك أبلغ عندنا من خرق العوائد بالأفعال البديعة في أنفسها، ومن هدي إلى هذا المسلك فقد رشد إلى الحق المنير، وانعكس كل مطعن ذكره الطاعنون عضدا وتأييدا.

إلى أن يقول: فإذا لم تجر المعارضة، لم يبق لامتناعها، مع توفر الدواعي عليها محمل إلا صرف الله الخلق، فكيف يهتدي إلى إعجاز القرآن، من يحاول أن يثبت خروجه عن العادة في الجزالة، وشفاء الصدور في الحكم ؟ فإن مثله من مقدورات الخلق، ولكنهم مصدودون ممنوعون بصرف الله إياهم)[1].

وعدها الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد ت ٥٠٥هـ): وجها من وجوه الإعجاز، فقال في كتابه –الاقتصاد في الاعتقاد: (فإن قيل: ما وجه إعجاز القرآن؟ قلنا: الجزالة والفصاحة مع النظم العجيب، والمنهاج الخارج عن مناهج كلام العرب في خطبهم وأشعارهم، وسائر صنوف كلامهم، والجمع بين هذا النظم وهذه الجزالة معجز خارج عن مقدور البشر، نعم، ربما يرى للعرب أشعار وخطب حكم فيها بالجزالة، وربما ينقل عن بعض من قصد المعارضة مراعاة هذا النظم بعد تعلمه من القرآن، ولكن من غير جزالة، بل مع ركاكة، كما يحكى عن ترهات مسيلمة الكذاب حيث قال: الفيل وما أدراك ما الفيل... الخ، فهذا وأمثاله ربما يقدر عليه، مع ركاكة يستغثها الفصحاء، ويستهزئون بها، وأما جزالة القرآن فقد قضى كافة العرب منها العجب، ولم ينقل عن واحد منهم تشبث بطعن في

١ - الجويني: العقيدة النظامية في الأركان الاسلامية - ص ٧٢-٧٣ (باختصار يسير).

فصاحته، فهذا إذن معجز وخارج عن مقدور البشر من هذين الوجهين، أعني من اجتماع هذين الوجهين.

فإن قيل: لعل العرب اشتغلت بالمحاربة والقتال فلم تعرج على معارضة القرآن، ولو قصدت لقدرت عليه، أو منعتها العوائق عن الاشتغال به، والجواب: إن ما ذكروه هوس، فإن دفع تحدي المتحدي بنظم كلام أهون من الدفع بالسيف، مهما جرى على العرب من المسلمين بالأسر والقتل والسبي، وشن الغارات، ثم ما ذكروه غير دافع غرضنا، فإن انصرافهم عن المعارضة لم يكن إلا بصرف من الله تعالى، والصرف عن المقدور المعتاد من أعظم المعجزات)[١].

وقد تعجب الشيخ، محمد عبد العظيم الزرقاني ممن قال بالصرفة فقال: (إني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته، ثم ليشتد عجبي وأسفي، حين ينسب إلى نفر من علماء المسلمين، الذين نرجوهم للدفاع عن القرآن، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا هذه الشبهات في إعجاز القرآن. على أن الحق لا يعرف بالرجال، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال، وها قد طاش هذا الرأي في الميزان –كما سنبين–، فلنرده على قائله أيا كان. وليس كل خلاف جاء معتبرا إلا خلاف له حظ من النظر)[٢].

١– الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد ، ص١٢٩-١٣٠ .

٢ - محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، ج٢/ ص ٣١٥ . بتصرف يسير .

المبحث الرابع: بطلان القول بالصرفة

مما سبق تبين لنا أن الصرفة نشأت في بيئة المعتزلة على يد- النظام- ومن تابعه، واعتبروها وجها من وجوه إعجاز القرآن،- مع اختلافهم على مفهومها-، وقال بها كذلك طائفة من علماء أهل السنة، والظاهرية، والشيعة الإمامية، مع عدم موافقة بعضهم على مفهوم- النظام- لها، ويمكننا أن نتعرف من أقوال القائلين بالصرفة على المفاهيم التالية:

المفهوم الأول: مفهوم النظام ومن تابعه، فقد ذهبوا إلى أن العرب صرفوا عن المعارضة جبرا، ولم يتوجهوا إليها، ولو توجهوا لاستطاعوا الإتيان بمثل القرآن، وهذا المذهب ينفي عن القرآن الإعجاز.

والمفهوم الثاني: وهو مفهوم الجاحظ، والرماني لها، وهولا يقدح في إعجاز القرآن، بل هو ضرب من التدبير الإلهي، فصرف نفوس العرب وأوهامهم عن معارضة القرآن، ليحفظه من عبث العابثين.

المفهوم الثالث: قال به الشريف المرتضى، وابن سنان الخفاجي، ومن تابعهما، فقد ذهبوا إلى أن الله سلب من العرب علومهم التي يحتاجون إليها في معارضة القرآن، والإتيان بمثله، ولو توجهوا لمعارضته، لما استطاعوا أن يأتوا بمثل القرآن.

المفهوم الرابع: وهو ما ذهب إليه القاضي عبد الجبار، حيث رفض المفاهيم السابقة للصرفة، واعتبر أن الصرفة مرتبطة بالقوم أنفسهم، وليست شيئا خارجا عنهم، أو مفروضة عليهم فرضا، بل إن دواعيهم انصرفت عن المعارضة، لعلمهم أنها غير ممكنة، فهي في الواقع انصراف، وليست صرفة.

وقد تصدى نفر من العلماء لهذه المفاهيم جميعها، وقاموا بردها وتفنيدها بأدلة منها:

١- قال الخطابي: (أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم ت٣٨٨هـ): إن قوما ذهبوا إلى أن العلة في إعجازه- أي القرآن الصرفة، أي صرف الهمم عن المعارضة، ولم يرتض الخطابي ذلك، بل رد عليهم بقوله: (إن دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)[١]، فأشار سبحانه في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها، لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها)[٢].

٢- رد الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم ت ٤٠٣هـ) الصرفة بردود منها:

أولا: لو كان الأمر على ما ذهبوا إليه، وكان الإعجاز بالصرفة حقا، لكان الأقوى في الحجة، والأبين في الدلالة، أن يجيء القرآن في أدنى درجات البلاغة، لأن ذلك أبلغ في الأعجوبة، فإن الذي يعجز عن كلام هو في مستوى كلام الناس أو أدنى منه، يكون ذلك دليلا على أن هناك قوة غلابة، حالت بينه وبين المعارضة، ولم يكن هناك حاجة لمجيء القرآن الكريم في نظم بديع، ومستوى رفيع عجيب، لأن الأقرب إلى قوة الدليل، ووضوح الحجة – حين تكون الصرفة هي الوجه للإعجاز- أن يكون القرآن في مستوى كلامهم، أو دونه.

---

١ - سورة الإسراء / آية ٨٨ .

٢ - الخطابي : في بيان إعجاز القرآن، ص ٢٣-٢٤ .

ثانيا: إننا لو سلمنا أن العرب المعاصرين للبعثة قد صرفوا كما يزعمون، لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به في الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب الرصف، فلما لم يوجد في كلام من قبله مثله، علم أن ما ادعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان.

ثالثا: إنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزا، وإنما يكون المنع هو المعجز، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره)[1].

٣- أفرد الإمام عبد القاهر الجرجاني(أبو بكر بن عبد الرحمن ت ٤٧١هـ) فصلا كاملا في رسالته –الشافية– (في الذي يلزم القائلين بالصرفة)، أبطل فيه مذهبهم، بردود كافية شافية، منها: (أنه يلزم على ادعائهم هذا، أن يكون العرب قد تراجعت حالها في البلاغة والبيان، وفي جودة النظم وشرف اللفظ، وأن يكونوا قد نقصوا في قرائحهم وأذهانهم، وعدموا الكثير مما كانوا يستطيعون، وأن تكون أشعارهم التي قالوها، والخطب التي قاموا بها،– من بعد أن أوحي إلى النبي ﷺ وتحدوا إلى المعارضة– قاصرة عما سمع منهم من قبل ذلك القصور الشديد، وإذا كان الأمر كذلك، وأنهم منعوا منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها، لزمهم أن يعرفوا ذلك من أنفسهم، ولو عرفوا لجاء عنهم ذكره، ولكانوا قد قالوا للنبيﷺ: إنا كنا نستطيع هذا قبل الذي جئتنا به، ولكنك سحرتنا، واحتلت علينا في شيء حال بيننا وبينه، وكان أقل ما يجب عليهم في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم، ويشكوا البعض إلى البعض، ويقولوا: ما لنا نقصنا في قرائحنا...؟ وإذا كان ذلك لم يرد، ولم يذكر إن كان منهم قول في هذا

١ - الباقلاني: إعجاز القرآن، ص ٤٢ .

المعنى، لا ما قل ولا ما كثر، فهذا دليل على أنه قول فاسد، ورأي ليس من آراء ذوي التحصيل.

ومنها: الأخبار التي جاءت عن العرب في شأن تعظيم القرآن، وفي وصفه بما وصفوه به من نحو: (إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر) فمحال أن يعظموه وأن يبهتوا عند سماعه، ويستكينوا له، وهم يرون فيما قالوه وقاله الأولون ما يوازيه، ويعلمون أنه لم يتعذر عليهم، لأنهم لا يستطيعون مثله، ولكن وجدوا في أنفسهم شبه الآفة، والعارض يعرض للإنسان فيمنعه بعض ما كان سهلا عليه، بل الواجب في مثل هذه الحال أن يقولوا: إن كنا لا يتهيأ لنا أن نقول في معاني ما جئت به ما يشبهه، إنما نأتيك في غيره من المعاني بما شئت، وكيف شئت، بما لا يقصر عنه.

وخلاصة القول: إن دليل النبوة عند القائلين بالصرفة، إنما كان في الصرف والمنع عن الإتيان بمثل نظم القرآن، لا في نفس النظم، ولو كان ذلك صحيحا، لكان ينبغي إذا تعجب متعجب، أن يقصد بتعجبه إلى المنع من شيء كان يستطيعه، لا أن يقصد بتعجبه وإكباره إلى الممنوع وهو القرآن الكريم، وهذا واضح لا يشكل)[١].

رد الحاكم الجشمي (أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي ت ٤٩٤هـ)- الزيدي المذهب، المعتزلي العقيدة – الصرفة، وأبان عن فسادها بقوله: (وقول من يقول بالصرفة لا يصح لوجوه، منها: أن القوم في أيامه لم يكونوا ممنوعين من الكلام، فإن أراد صرفهم عن العلم الذي معه يتأتى مثله، فهو الذي نقول، وإن أراد صرفهم – وتلك العلوم قائمة

١ الجرجاني : - عبد القاهر، الرسالة الشافية ص ١٤٦- ١٥٤، بتصرف .

والدواعي إلى المعارضة متوافرة – فذلك يستحيل، وإن قال يصرفهم عن الدواعي، فقد بينا ثبوت الدواعي فيهم. وبعد، فلو كان الإعجاز الصرفة، لكان أدون في الفصاحة آكد في الإعجاز، ولكنه كان لا يصح التحدي به)[1].

٥- رد ابن عطية: (القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب ت ٥٤٦هـ) القول بالصرفة فقال: (ووجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله علما، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن، علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل، والنسيان، والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشرا لم يكن قط محيطا، فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول من قال: إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن، فلما جاء محمد ﷺ صرفوا عن ذلك وعجزوا عنه .

والصحيح: أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يضع خطبة، أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر بعده، فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال فيها بعد ذلك مواضع للنظر والبدل، وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب أن يوجد أحسن منها لم يوجد. إلى أن يقول: فصورة قيام الحجة بالقرآن على العرب: أنه لما جاء محمد ﷺ به وقال: (فأتوا بسورة من مثله[2]، قال كل فصيح في نفسه:

١ - د. عدنان زرزور : الحاكم الجشمي ومنهجه في التفسير ، ص ٤٤٦ .

٢ - سورة البقرة، آية / ٢٣ .

وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله ؟ فلما تأمله وتدبره، ميز منه ما ميز الوليد بن المغيرة حين قال: والله ما هو بالشعر، ولا هو بالكهانة، ولا بالجنون، وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا قدرة لبشر على مثله، فصح عنده أنه من عند الله، فمنهم من آمن وأذعن، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره، ففر إلى القتال، ورضي بسفك الدم،عجزا عن المعارضة، حتى أظهر الله دينه، ودخل جميعهم فيه، ولم يمت رسول الله ﷺ وفي الأرض قليل من العرب يعلن كفره)[1].

قال أبو حيان (أبو علي محمد بن يوسف بن علي الأندلسي ت ٦٥٤هـ): (اختلفوا فيما به إعجاز القرآن، فمن توغل في أساليب الفصاحة وأفانينها، وتوغل في معارف الآداب وقوانينها، أدرك بالوجدان أن القرآن أتى في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها، ونهاية من البلاغة لا يمكن أن يحام عليها، فمعارضته عنده غير ممكنة للبشر، ولا داخلة تحت القدر، ومن لم يدرك هذا المدرك، ولا سلك هذا المسلك، رأى أنه من نمط كلام العرب، وأن مثله مقدور لمنشئ الخطب، فإعجازه عنده إنما هو بصرف الله تعالى إياهم عن معارضته، ومن اضلته، وإن كانوا قادرين على مماثلته. والقائلون بأن الإعجاز وقع بالصرف، هم من نقصان الفطرة الإنسانية في رتبة بعض النساء، حين رأت زوجها يطأ جارية، فعاتبته، فأخبر أنه ما وطئها، فقالت له: إن كنت صادقا فاقرأ شيئا من القرآن،

١ - ابن عطية : المحرر الوجيز، ج١/ ص ٧١- ٧٣ ، و القرطبي : الجامع لأحكام القرآن – ، ج١/ ص٥١ .

فأنشدها بيت شعر ذكر الله فيه ورسوله وكتابه فصدقته، فلم ترزق من الرزق ما تفرق به بين كلام الخلق وكلام الحق)[1].

٧- إجماع الأمة قبل ظهور القول بالصرفة على أن إعجاز القرآن ذاتي، وقد حكى الإمام القرطبي: (محمد بن أحمد ت٦٨٤هـ) الإجماع في كتابه (الجامع لأحكام القرآن) فقال بعد أن ذكر قول القائلين بالصرفة: (وهذا فاسد، لأن الإجماع قبل حدوث المخالف: أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا: إن المنع والصرفة هو المعجز، لخرج القرآن عن أن يكون معجزا، وذلك خلاف الإجماع، وإذا كان كذلك، علم أن نفس القرآن هو المعجز، وأن فصاحته وبلاغته أمر خارق للعادة، إذ لم يوجد كلام قط على هذا الوجه، فلما لم يكن كذلك مألوفا معتادا منهم، دل على أن المنع والصرفة ، لم يكن معجزا)[2].

٨- تحدث العلوي: (يحيى بن حمزة ت ٧٤٩هـ) عن الصرفة كذلك وردها، بعد أن بين أن لها تفسيرات ثلاثة، فقال: (التفسير الأول: أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلب دواعيهم إلى المعارضة، مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة من التقريع بالعجز، والاستنزال عن المراتب العالية، والتكليف بالانقياد والخضوع، ومخالفة الأهواء .

التفسير الثاني: أن يريدوا بالصرفة أن الله تعالى سلبهم العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن، ويقاربه، ثم إن سلب العلوم يمكن

---

١ - أبو حيان : البحر المحيط ج١/ ص ٨-٩ .

٢ - القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ،ج١/ ص٧٥. وانظر :د. عبد الفتاح محمد سلامة: قضية الإعجاز بين المتقدمين والمتأخرين، ص ١٥٤ .

تنزيله على وجهين، أحدهما أن يقال: إن تلك العلوم كانت حاصلة لهم على جهة الاستمرار، لكن الله تعالى أزالها عن أفئدتهم، ومحاها عنهم. وثانيها أن يقال: إن تلك العلوم ما كانت حاصلة لهم، خلا أن الله تعالى صرف دواعيهم عن تجديدها، مخافة أن تحصل المعارضة .

التفسير الثالث: أن يراد بالصرفة: أن الله تعالى منعهم بالإلجاء على جهة القسر عن المعارضة –مع كونهم قادرين–، وسلب قواهم عن ذلك، فلأجل هذا لم تحصل من جهتهم المعارضة.

وحاصل الأمر في هذه المقالة: أنهم قادرون على إيجاد المعارضة للقرآن، إلا أن الله تعالى منعهم بما ذكرناه، والذي غر هؤلاء حتى زعموا هذه المقالة، ما يرون من الكلمات الرشيقة، والبلاغات الحسنة، والفصاحات المستحسنة، الجامعة لكل الأساليب البلاغية في كلام العرب الموافقة لما في القرآن، فزعم هؤلاء أن كل من قدر على ما ذكرناه من تلك الأساليب البديعة، لا يقصر عن معارضته، خلا ما عرض من منع الله إياهم بما ذكرنا من الموانع، والذي يدل على بطلان هذه المقالة براهين:

البرهان الأول منها: أنه لو كان الأمر كما زعموه، من أنهم صرفوا عن المعارضة مع تمكنهم منها، لوجب أن يعلموا ذلك من أنفسهم بالضرورة، وأن يميزوا بين أوقات المنع، والتخلية، ولو علموا ذلك، لوجب أن يتذاكروا في حال هذا المعجز على جهة التعجب، ولو تذاكروا لظهر وانتشر على حد التواتر، فلما لم يكن ذلك، دل على بطلان مذاهبهم في الصرفة.

البرهان الثاني: لو كان الوجه في إعجازه هو الصرفة – كما زعموه –، لما كانوا مستعظمين لفصاحة القرآن، فلما ظهر منهم التعجب لبلاغته، وحسن فصاحته – كما أثر عن الوليد بن المغيرة – حيث قال:

إن أعلاه لمورق، وإن أسفله لمغدق، وإن له لطلاوة، وإن عليه لحلاوة، فإن من المعلوم من حال كل بليغ وفصيح سمع القرآن يتلى عليه، فإنه يدهش عقله، ويحير لبه، وما ذاك إلا لما قرع مسامعهم من لطيف التأليف، وحسن مواقع التصريف في كل موعظة، وحكاية كل قصة، فلو كان ما زعموه من الصرفة، لكان العجب من غير ذلك، فلو كان كما زعمه أهل الصرفة، لم يكن للتعجب من فصاحته وجه، فلما علمنا بالضرورة إعجابهم بالبلاغة، دل على فساد هذه المقالة .

البرهان الثالث: الرجع بالصرفة التي زعموها، هو أن الله تعالى أنساهم هذه الصيغ، فلم يكونوا ذاكرين لها بعد نزوله، ولا شك أن نسيان الأمور المعلومة في مدة يسيرة، يدل على نقصان العقل، ولهذا فإن الواحد إذا كان يتكلم بلغة مدة عمره، فلو أصبح في بعض الأيام لا يعرف شيئا من تلك اللغة، لكان دليلا على فساد عقله وتغيره، والمعلوم من حال العرب، أن عقولهم ما زالت بعد التحدي بالقرآن، وأن حالهم في الفصاحة والبلاغة بعد نزوله كما كان من قبل، فبطل ما عول عليه أهل الصرفة)[1].

٩- رد الشريف الجرجاني(السيد علي بن محمد ت ٨١٢هـ) شبه القادحين في إعجاز القرآن فقال: (وأما القول بالصرفة فلوجوه، الأول: الإجماع قبل هؤلاء) القائلين بها (على أن القرآن معجز،) وعلى هذا القول يكون المعجز هو الصرف لا القرآن، ألا ترى أنه (لو قال: أنا أقوم وأنتم لا تقدرون عليه، وكان كذلك، لم يكن قيامه معجزا، بل عجزهم عن

١ - يحيى بن حمزة العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، المجلد ٣/ ص ٣٩١-٣٩٥ .(باختصار) .

القيام)، فهذه المقالة خارقة لإجماع المسلمين السابقين على أن القرآن معجزة لرسول الله دالة على صدقه .

(الثاني): إنهم (لو سلبوا القدرة)– كما قال به الشريف المرتضى– لعلموا ذلك من أنفسهم، و(لتناطقوا به عادة ولتواتر) عنهم(ذلك) التناطق، لجريان العادة بالتحدث بخوارق العادات، لكنه لم يتواتر قطعا،(فإن قيل: إنما لم يتذاكروه) ولم يظهروه (لئلا يصير حجة عليهم)، ملجئة لهم إلى الانقياد مع أنهم كانوا حراصا على إبطال حجته، وانتكاس دعوته، فلا يتصور منهم حينئذ إظهار ما علموه من أنفسهم، (قلنا: إن كان ذلك)، أي سلب القدرة عنهم (موجبا لتصديقه) إيجابا قطعيا، (امتنع عادة تواطؤ الخلق الكثير على مكابرته)، والإعراض بالكلية عن مقتضاه، (وإن لم يكن موجبا لتصديقه بل احتمل السحر وغيره) كفعل الجن (مثلا لتناطقوا به، وحملوه عليه)، وقالوا: قد سلب عنا قدرتنا، إما بالسحر، وإما بغيره، فلا يلزمهم بإظهاره صيرورته حجة عليهم .

(الثالث): إنه لا يتصور الإعجاز بالصرفة، وذلك لأنهم (كانوا) حينئذ (يعارضونه بما اعتيد منهم) من مثل القرآن الصادر عنهم (قبل التحدي به)، بل قبل نزوله، (فإنهم لم يتحدوا بإنشاء مثله بل بالإتيان به) فلهم بعد الصرفة الواقعة بعد التحدي، أن يعارضوا القرآن بكلام مثله صادر عنهم قبل الصرفة][1].

١٠– قرر السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت ٩١١هـ) بطلان مذهب الصرفة، فقال: (زعم النظام أن إعجازه بالصرفة،

١ - شرح المواقف: (مرجع سابق) ج٨/ ص ٢٤٩ .(ما بين القوسين من كلام الإيجي، وما عداه فهو للشريف الجرجاني).

أي أن الله صرف العرب عن معارضته، وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم، لكن عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات، وهذا قول فاسد بدليل: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن... الآية)[1] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سلبوا القدرة، لم تبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره، هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة إعجاز إلى القرآن، فكيف يكون معجزا وليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى، حيث سلبهم القدرة على الإتيان بمثله؟ وأيضا فيلزم من القول بالصرفة: زوال إعجازه بزوال زمن التحدي، وخلو القرآن من الإعجاز، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة: أن معجزة الرسول العظمى باقية، ولا معجزة له باقية سوى القرآن)[2].

١١- قال الآلوسي: (أبو الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي ت ١٢٧٠هـ)- بعد أن ذكر بعض وجوه إعجاز القرآن:

(قال الأستاذ أبو إسحاق الاسفرايني، والنظام، إعجازه بصرف دواعي بلغاء العرب عن معارضته، وقال المرتضى: بسلبهم العلوم التي لا بد منها في المعارضة، واعترض بأربعة أوجه:

الأول: أنه يستلزم أن يكون المعجز الصرفة، لا القرآن، وهو خلاف ما عليه إجماع المسلمين من قبل.

الثاني: أن التحدي وقع بالقرآن على كل العرب، فلو كان الإعجاز بالصرفة، لكانت على خلاف المعتاد بالنسبة إلى كل واحد ضرورة تحقق

---

١ - سورة الإسراء، آية / ٨٨ .

٢ - السيوطي : الإتقان (مرجع سابق)، ج٤/ ص٦-٧ .

الصرفة بالنسبة إليه، فيكون الإتيان بمثل كلام القرآن معتادا له، والمعتاد لكل ليس هو الكلام الفصيح بل خلافه، فيلزم أن يكون القرآن كذلك وليس كذلك.

الثالث: أنه يستلزم أن يكون مثل القرآن معتادا من قبل لتحقق الصرفة من بعد، فتجوز المعارضة بما وجد من كلامهم مثل القرآن قبلها .

الرابع: وهو خاص بمذهب المرتضى، أنه لو كان الإعجاز بفقدهم العلوم لتناطقوا به، ولو تناطقوا لشاع، إذ العادة جارية بالتحدث بالخوارق، فحيث لم يكن، دل على فساد الصرفة بهذا الاعتبار. واستدل بعضهم على فساد القول بها بقوله تعالى:(قل لئن اجتمعت الإنس والجن ...)[١] فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرهم، ولو سلبوا القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم، لأنه بمنزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره... إلى أن يقول: وأبعد الأقوال عندي كونه بالصرفة المحضة، حتى أن قول المرتضى فيها غير مرتضى، كما لا يخفى على من أنصفه ذهنه، واتسع عطنه)[٢].

١٢ – قال السيد أبو القاسم الخوئي: (ت ١٤١٣هـ)– من علماء الشيعة الإمامية–: بعد أن ذكر وجوه إعجاز القرآن، وتحدث عن بعض الأوهام حول إعجاز القرآن وقام بتفنيدها، قال: (قالوا إن العارف باللغة العربية، قادر على أن يأتي بمثل كلمة من كلمات القرآن، وإذا أمكنه ذلك أمكنه أن يأتي بمثل القرآن، لأن حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد.

---

١ - سورة الإسراء : آية / ٨٨ .

٢ - الآلوسي : روح المعاني، ج١/ ص ٢٧- ٣٣ .

الجواب: إن هذه الشبهة لا تليق بالذكر، فإن القدرة على الإتيان بمثل كلمة من كلمات القرآن، بل على الإتيان بمثل جملة من جملاته، لا تقتضي القدرة على الإتيان بمثل القرآن، أو بمثل سورة من سوره، فإن القدرة على المادة، لا تستلزم القدرة على التركيب، ولهذا لا يصح لنا أن نقول: إن كل فرد من أفراد البشر قادر على بناء القصور الفخمة، لأنه قادر على وضع أجرة في البناء، أو نقول: إن كل عربي قادر على إنشاء الخطب والقصائد، لأنه قادر على أن يتكلم بكل كلمة من كلماتها ومفرداتها، وكأن هذه الشبهة هي التي دعت (النظام) وأصحابه، إلى القول بأن إعجاز القرآن بالصرفة، وهذا القول في غاية الضعف:

أولا: لأن الصرفة التي يقولون بها، إن كان معناها: أن الله قادر على أن يقدر بشرا على أن يأتي بمثل القرآن، ولكنه تعالى صرف هذه القدرة من جميع البشر، ولم يؤتها لأحد منهم فهو معنى صحيح، ولكنه لا يختص بالقرآن، بل هو جار في جميع المعجزات .

وإن كان معناها: أن الناس قادرون على أن يأتوا بمثل القرآن، ولكن الله صرفهم عن معارضته، فهو واضح البطلان، لأن كثيرا من الناس تصدوا لمعارضة القرآن، فلم يستطيعوا ذلك، واعترفوا بالعجز.

ثانيا: لأنه لو كان إعجاز القرآن بالصرفة، لوجد في كلام العرب السابقين مثله، قبل أن يتحدى النبي البشر، ويطالبهم بالإتيان بمثل القرآن، ولو وجد ذلك لنقل وتواتر، لكثرة الدواعي إلى نقله، وإذ لم يوجد ولم ينقل، كشف ذلك عن كون القرآن بنفسه إعجازا إلهيا، خارجا عن طاقة البشر)[1].

---

١ - علوم القرآن عند المفسرين، مركز الثقافة والمعارف القرآنية التابع لمكتب الإعلام الإسلامي –إيران . . ج٢/ ص ٥٤٢-٥٤٣، نقلا عن تفسير البيان ج١/ ص ٥١- ١١٤ .

١٣- قال الزرقاني (محمد عبد العظيم): تحت عنوان شبهة القول الصرفة: (ومن الباحثين من طوعت له نفسه أن يذهب إلى القول بأن وجه إعجاز القرآن هو الصرفة، أي: صرف الله العرب عن معارضته، على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية، وضربوا لذلك مثلا، فقالوا: إن الإنسان كثيرا ما يترك عملا هو من جنس أفعاله الاختيارية، ومما يقع مثله في دائرة كسبه وقدرته، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر، وإما لأن الكسل أو الصدود أصابه فأقعده همته، وثبط عزيمته، وإما لأن حادثا مفاجئا لا قبل له به قد اعترضه، فعطل آلاته ووسائله، وعاق قدرته قهرا عنه، على رغم انبعاث همته نحوه، وتوجه إرادته إليه، فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن، لم ينشأ من أن القرآن بلغ في بلاغته حد الإعجاز الذي لا تسمو إليه قدرة البشر عادة، بل لواحد من ثلاثة:

أولها: أن بواعث هذه المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم.

ثانيها: أن صارفا إلهيا زهدهم في المعارضة، فلم تتعلق بها إرادتهم، ولم تنبعث إليها عزائمهم، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعي.

ثالثها: أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية، وعاق قدرتهم البلاغية، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على رغم تعلق إرادتهم بها وتوجه همتهم إليها.

بهذا التوجيه أو نحوه، يعزى القول بالصرفة إلى: أبي اسحق الإسفراييني من أهل السنة، والنظام من المعتزلة، والمرتضى من الشيعة. وأنت إذا تأملت هذه الفروض الثلاثة التي التمسوها، أو التمست لهم، علمت أن عدم معارضة العرب للقرآن لم تجئ من ناحية إعجازه البلاغي

في زعمهم، بل جاءت على الفرضين الأولين، من ناحية عدم اكتراث العرب بهذه المعارضة، ولو أنهم حاولوها لنالوها، وجاءت على الفرض الأخير، من ناحية عجزهم عنها بسبب خارجي عن القرآن، وهو وجود مانع منعهم منها قهرا، ذلك المانع هو: حماية الله لهذا الكتاب، وحفظه إياه من معارضة المعارضين، وإبطال المبطلين. ولو أن هذا المانع زال لجاء الناس بمثله،لأنه لا يعلو على مستواهم في بلاغته ونظمه.

وبعد أن ذكر الزرقاني شبه القائلين بالصرفة، أخذ في تفنيد شبههم فقال: وهذا القول بفروضه التي افترضوها، أو بشبهاته التي تخيلوها، لا يثبت أمام البحث، ولا يتفق والواقع.

أما الفرض الأول: فينقضه ما سجل التاريخ وأثبت التواتر، من أن دواعي المعارضة كانت قائمة موفورة، ودوافعها كانت ماثلة متآخذة، وذلك لأدلة كثيرة:

منها: أن القرآن تحداهم غير مرة أن يأتوا ولو بمثل أقصر سورة منه، ثم سجل العجز عليهم، وقال بلغة واثقة: إنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا، ولن يفعلوا، ولو ظاهرهم الإنس والجن، فكيف لا تثور حميتهم إلى المعارضة بعد هذا، ولو كانوا أجبن خلق الله؟

ومنها: أن صناعتهم البيان، وديدنهم التنافس في ميادين الكلام، فكيف لا يطيرون بعد هذه الصيحة إلى حلبة المساجلة .؟

ومنها: أن القرآن أقام حربا شعواء على أعز شيء لديهم، وهي عقائدهم المتغلغلة فيهم، وعوائدهم المتمكنة منهم، فأي شيء يلهب المشاعر ويحرك الهمم إلى المساجلة أكثر من هذا...؟ ما دامت المساجلة هي السبيل المتعين لإسكات خصمهم لو استطاعوا.

وأما الفرض الثاني: فينقضه الواقع التاريخي أيضا، ودليلنا على هذا ما تواترت به الأنباء، من أن بواعث العرب إلى المعارضة قد وجدت سبيلها إلى نفوسهم، ونالت منالها من عزائمهم، فهبوا هبة رجل واحد، يحاولون القضاء على دعوة القرآن، بمختلف الوسائل، فلم يتركوا طريقا إلا سلكوه، ولم يدعوا بابا إلا دخلوه . لقد آذوه، وآذوا أصحابه، فسبوا من سبوا، وعذبوا من عذبوا، وقتلوا من قتلوا. ولقد قاطعوه وقاطعوا أسرته الكريمة، لا يبيعون لهم ولا يبتاعون، ولا يتزوجون منهم، ولا يزوجون، واشتد الأمر حتى أكلت الأسرة الكريمة ورق الشجر . ولقد فاوضوه أثناء هذه المقاطعة التي تلين الحديد مفاوضات عدة، وعرضوا عليه عروضا سخية مغرية، منها: أن يعطوه حتى يكون أكثرهم مالا، وأن يعقدوا له لواء الزعامة فلا يقطعوا أمرا دونه، وأن يتوجوه ملكا عليهم إن كان يريد ملكا، وأن يلتمسوا له الطب إن كان به مس من الجن. كل ذلك في نظير أن يترك هذا الذي جاء به. ولما أبى عليهم ذلك عرضوا عليه أن يهادنهم ويداهنهم، فيعبد آلهتهم سنة، ويعبدون إلهه سنة، فأبى أيضا.

ولقد اتهموه ﷺ بالسحر، وأخرى بالشعر، وثالثة بالجنون، ورابعة بالكهانة، وكانوا يتعقبونه وهو يعرض نفسه على قبائل العرب أيام الموسم، فيبهتونه، ويكذبونه أمام من لا يعرفونه، ولقد شدوا وطأتهم على أتباعه حتى اضطروهم أن يهاجروا من وطنهم، ويتركوا أهلهم وأولادهم وأموالهم فرارا إلى الله بدينهم. ولقد تآمروا على الرسول أن يثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، لولا أن حفظه الله وحماه من مكرهم، وأمره بالهجرة من بينهم. ولقد أرسلوا إليه الأذى بعد ذلك في مهاجره، فشبت الحرب بينه وبينهم في خمس وسبعين موقعة، منها سبع وعشرون غزوة، وثمان وأربعون سرية. فهل يرضى عاقل لنفسه أن يقول بعد ذلك كله: إن العرب كانوا مصروفين

عن معارضة القرآن، ونبي القرآن، وإنهم كانوا مخلدين إلى العجز والكسل، زاهدين في النزول إلى هذا الميدان؟.

وأما الفرض الثالث: فينقضه ما هو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارضته، اقتناعا بإعجازه، وعجزهم الفطري عن مساجلته، ولو أن عجزهم هذا كان لطارئ مباغت عطل قواهم البيانية، لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة بمقتضى تلك الدوافع القوية التي شرحناها، ففوجئوا بما ليس في حسبانهم، ولكان هذا مثار عجب لهم، ولأعلنوا ذلك في الناس، ليلتمسوا لأنفسهم العذر، وليقللوا من شأن القرآن في ذاته، ولعمدوا إلى كلامهم القديم، فعقدوا مقارنة بينه وبين القرآن، يغضون بها من مقام القرآن وإعجازه، ولكانوا بعد نزول القرآن أقل فصاحة وبلاغة منهم قبل نزوله، ولأمكننا نحن الآن، وأمكن المشتغلين بالأدب العربي في كل عصر، أن يتبينوا الكذب في دعوى إعجاز القرآن، وكل هذه اللوازم باطلة، فبطل ما استلزمها وهو القول بالصرفة...)[1].

١٤- وأخيرا لا آخرا تأثير القرآن في أنفس العرب: فقد أجمع أساطين الأدب والبيان- قديما وحديثا-، على أن للعرب في عصر الرسالة قدما راسخة في البيان، وبلاغة المنطق، وتذوق الكلام، والتمييز بين جيده ورديئه، وليس أدل على ذلك مما قاله الجاحظ في كتابه

-حجج النبوة -، حيث قال: (بعث الله محمداﷺ أكثر ما كانت العرب شاعرا وخطيبا، وأحكم ما كانت لغة، وأشد ما كانت عدة، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله، وتصديق رسالته، فدعاهم بالحجة، فلما قطع العذر

١ - الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن، (مرجع سابق) ج٢/ ص٣١٠-٣١٥ (باختصار يسير).

وأزال الشبهة، وصار الذي يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية، دون الجهل والحيرة، حملهم على حظهم بالسيف، فنصب لهم الحرب ونصبوا، وقتل من أعلامهم، وعليائهم، وأعمامهم، وبني أعمامهم، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن، ويدعوهم صباحا ومساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة، أو بآيات يسيرة، فكلما ازداد تحديا لهم بها، وتقريعا لعجزهم عنها، تكشف من نقصهم ما كان مستورا، وظهر منه ما كان خافيا .. إلى أن يقول: إن القرآن إذ تحداهم بالحجة، ولم يقدروا على الإتيان بمثله عجزا منهم ووهنا، لا تهاونا وتغافلا، لأن الإتيان بمثل أصغر سورة منه كان كفيلا بأن يكفيهم قتل الأنفس والأولاد، وأن التقريع بالعجز أشد على نفوس العرب، والبدو خاصة، لما فيهم من الأنفة والعزة، فكيف والقرآن يتحداهم في أخص خصائصهم وهو البيان، وهم قد عرفوا فيه بالبراعة والبلاغة...؟)[1].

ومع عناد مشركي مكة، ومحاربتهم لدعوة محمد – صلى الله عليه وسلم– فإن فصحاءهم لم يكتموا إعجابهم ببلاغة القرآن، وحسن تعبيره، وقوة تأثيره، وجمال نظمه، وروعة إيقاعه.

وقد صدرت عن فصحائهم وبلغائهم أقوال صريحة تشير إلى علو كعبه في هذا المضمار، وذلك إبان تفكيرهم في القرآن، وحيرتهم في جمال نظمه وجلال معناه، ولعل الوليد ابن المغيرة– وهو من بلغاء عصر الوحي – أول من تنبه إلى عظمة القرآن، فكانت كلمته المأثورة أول تقريظ ناله القرآن من بلغاء عصره ومصره والتي يقول فيها: (والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن، والله إن

١ - الجاحظ : حجج النبوة : -ضمن رسائل الجاحظ - ص ١٤٩. ود. محمد زغلول سلام: أثر القرآن في تطور النقد العربي - ص٧٦.

لقوله لحلاوة، وإن أصله لمغدق- يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوي وطال فرعها-، وإن غرسه لجنا أي كثير الجنى وهو الثمر -وإن عليه لطلاوة، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته)[1]، وما كان له أن يقولها لو علم إمكان معارضته.

وروى الإمام محمد بن اسحق في كتاب السيرة (أن -عتبة بن ربيعة- كان سيدا في قومه، قال يوما وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء .. ويكف عنا..؟ فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إليه، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث علمت من السطة (أي: الشرف) في العشيرة، والكمال في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا، فتنظر فيها لعلك تقبل مني بعضها .فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا: جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تريد شرفا: سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا: ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع إليه قال: أفرغت يا أبا الوليد...؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، قال الرسول ﷺ: [بسم الله الرحمن

١ - ابن هشام : السيرة النبوية - ج١ / ص٢٣٤-٢٣٥.

الرحيم. حم. تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون][1] ثم مضى رسول الله ﷺ يقرأ هذه السورة وعتبة ينصت إليه، وهو ملق يديه خلف ظهره، معتمدا عليهما، حتى انتهى الرسول إلى السجدة، ثم قال:(قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك)، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ..؟ قال: ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فو الله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: قد سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال : هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم)[2].

وأمر – الطفيل بن عمرو الدوسي– كأمر هؤلاء الذين أثر فيهم القرآن، كان شريفا في قومه، شاعرا نبيلا، قدم مكة، فمشى إليه رجال من قريش يحذرونه من اتباع محمد ﷺ قائلين: إنا نخشى عليك وعلى قومك، فإذا ما دخل عليك فلا تكلمه ولا تسمع منه، يقول الطفيل: فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت – أي قصدت وعزمت –على أن لا أ سمع منه شيئا ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت المسجد فحشوت أذني كرسفا (أي قطنا) فرقا (أي خوفا) من أن يبلغني شيئا من قوله، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريبا منه، فأبى الله إلا أن أسمع بعض

١ - سورة فصلت / ١-٤.

٢ - ابن هشام :السيرة النبوية، (مرجع سابق)ج١/ ص٢٣٤-٢٣٥.

قوله، فسمعت كلاما حسنا، فقلت في نفسي: أنا ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني من أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسنا قبلت، وإن كان قبيحا تركت، فمكثت حتى انصرف إلى بيته، فقلت: يا محمد، إن قومك قالوا لي كذا وكذا، حتى سددت أذني بكرسف كي لا أسمع قولك، فاعرض علي أمرك، فعرض عليه الإسلام، وتلا عليه القرآن، قال الطفيل: والله ما سمعت قط قولا أحسن من هذا، ولا أمرا أعدل منه، فأسلمت)[1].

وأكتفي بما ذكرته من أخبار منسوبة لمشركي قريش، تدل على اعترافهم الصريح بإعجاز القرآن الكريم، وبلوغه درجة في البيان لم يبلغها شاعر، ولا خطيب منهم، وتبين تأثيره في القلوب التي كانت تهفو لمعرفة الحق، وتتوق للوصول إلى الطمأنينة والأمان، وفي القلوب الصلدة رغم المكابرة والعداوة، فلامس القرآن شغاف قلوب بعضهم، وملك أفئدتهم وعقولهم فعرفوا مزيته وإعجازه، فقادهم إلى صراط الحق القويم.

١ - ابن هشام: السيرة النبوية، (مرجع سابق)، ج٢ / ص ١٨- ٢١.

الخاتمة:

بعد هذا العرض لمفهوم الصرفة، تبينت لي حقيقتان هامتان، أشير إليهما بإجمال:

الحقيقة الأولى: أن قريشا مع شدة ملاحاتها للنبي ﷺ، ومع أن القرآن قد ذكر آباءهم بغير ما يحبون، وذكر أوثانهم بغير ما يؤمنون، لم يتحركوا لأن يقولوا مثله، إذعانا لبلاغته وفصاحته، مع أن القرآن تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه، فما فعلوا لئلا يسفوا في تفكيرهم، فدل هذا على عجزهم المطلق، (إذ نابذوه وناصبوه الحرب، فهلكت النفوس، وأريقت المهج، وقطعت الأرحام، وذهبت الأموال، ولو كان ذلك في وسعهم، وتحت مقدورهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول، إلى الحزن الوعر من الفعل، وهذا ما لا يفعله عاقل، ولا يختاره ذو لب راجح)[١].

الحقيقة الثانية: أن القرآن جذب كثيرا من العرب إلى الإيمان بما فيه من قوة بيان وإيجاز معجز، وأقوال محكمة، وقصص تطول وتقصر، وهي مملوءة بالعبر في طولها وقصرها، وإطنابها الرائع، وإيجازها الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوفاها حقها، بالعبارة الناصعة، والإشارة الواضحة، فأدركوا أن إعجازه ذاتي، نابع منه، وأنه فوق طاقة البشر. وهذا يقودنا إلى أن القول بالصرفة قول باطل، وساقط عن الاعتبار، وإن قال به نفر من أعلام العلماء، فالحق لا يعرف بالرجال، وإنما يعرف بسلامة الاستدلال.

---

١ -الخطابي : بيان إعجاز القرآن، (مرجع سابق) ص/ ٢١ .

وأن إعجاز القرآن ذاتي، فهو معجز بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، مما جعل العرب يستعظمون بلاغة القرآن وفصاحته، ولو كانوا مصروفين عن المعارضة، لكان تعجبهم للصرف، لا للبيان المعجز، ولو كان هناك سلب لعلومهم، لكان الفرق بين كلامهم بعد التحدي وكلامهم قبله، كالفرق بين كلامهم بعد التحدي وبين القرآن، ولما لم يكن كذلك، بطل القول بالصرفة.

ويمكن تلخيص جميع ما سبق في نقاط محددة وهي:

١- الصرفة بمعناها اللغوي يتناسب مع المعنى الاصطلاحي، ففي اللغة تعني التحول، وفي الاصطلاح، تحولهم وميلهم من القدرة عن الإتيان بمثله إلى عدم قدرتهم.

٢- الصرفة كما رأينا مصدرها بعيد عن البيئة الإسلامية، تلقفه النظام ونشره.

٣- الصرفة ليست قضية مذهبية، فقد قال بها النظام من المعتزلة، والمرتضى من الشيعة، وقد خالفها من المعتزلة كذلك كما ردها غيرهم من أهل السنة.

٤- الصرفة ليست وجهاً من وجوه الإعجاز، بل هو مخالف لصريح الآيات التي تحدث العرب أن يأتوا مثل القرآن.

٥- مفهوم الصرفة اختلف القائلون به، بين من يجعله وجه مستقل من وجوه الإعجاز، وبين من يجعله بجانب الوجوه الأخرى.

٦- أن مفهوم الصرفة، بمعناه الذي تداوله النظام ومن تبعه، يؤدي إلى إبطال النبوات، بغض النظر صرح بهذا المقصد أم لا.

٧- أن نسبة الصرفة للنظام شاع وانتشر وإن لم نعثر على مرجع له في ذلك فقد تناقله عنه العلماء، وأدل شيء على صحة نسبتها إليه رد

المعتزلة أنفسهم عليه لا سيما تلميذه الجاحظ، وأن ادعاء دسيسة ذلك عليه لا تقف على ساق.

٨- أن الإجماع قبل القول بالصرفة كان على أن القرآن معجز بنفسه، ما يبطل إحداث رأي جديد، كالقول بالصرفة.

٩- أن القول بالصرفة لم يرد في أثر، ولم يقل به أصحاب القرون المفضلة، ولم يرد عن أحد من أهل السنة بمفهومه الخاص بما يقابل أهل البدع والأهواء.

١٠- أن هناك فرقًا بين الصرفة والانصراف، فالصرفة هي منع، والانصراف هو أن العرب انصرفت هممهم عن معارضته، بعد تيقنهم من العجز عن الإتيان بمثله.

أسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل القرآن وخاصته المدافعين عن شريعته، وصلى الله على النبي المختار، وعلى الآل الأطهار وعلى الصحابة الأخيار، وعلى التابعين ومن تبعهم من أهل السنة والأثر بإحسان إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مراجع البحث:

١- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري: د. محمد زغلول سلام، تقديم د. محمد خلف الله أحمد، ط٣، دار المعارف بمصر.

٢- إعجاز القرآن: أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٥٤م .

٣- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، حققه محمد سعيد العريان ط٣، ١٩٤٥، مطبعة الاستقامة بالقاهرة .

٤- أعلام النبوة : أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، (ت ٤٥٠هـ): الطبعة الأولى ١٩٨٧م – مكتبة الآداب، مصر تعليق: د.عبد الرحمن حسن محمود.

٥- الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث بالقاهرة، ط ٣، ١٩٨٥م .

٦- الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد: إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن أبي عبد الله الجويني: (ت٤٧٨هـ)، تحقيق: د. محمد يوسف موسى وزميله، طبع الخانجي بمصر سنة ١٩٥٠م.

٧- الإعجاز البلاغي:د. محمد محمد أبو موسى، ط٢، ١٩٧٧م، مكتبة وهبة، القاهرة .

٨- الإعجاز الفني في القرآن: د.عمر السلامي، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، ١٩٨م.

٩- الإعجاز القرآني، وجوهه وأسراره: د. عبد الغني محمد سعد بركة، ١٩٨٩م، مكتبة وهبة بالقاهرة.

١٠- الاقتصاد في الاعتقاد: حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت.
١١- الإلهيات: جعفر السبحاني، منشورات المركز العالمي للدراسات الإسلامية – إيران .
١٢- الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيان التوحيد (ت ٤١٤هـ)، تحقيق أحمد أمين وزميله، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٣٩م.
١٣- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت٧٩٤هـ) تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، مصر ١٩٥٧م .
١٤- البخلاء: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، إصدار دار الشئون الثقافية العامة ببغداد سنة ١٩٩١م.
١٥- بيان إعجاز القرآن الكريم: لأبي سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ت٣٨٨هـ) ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن – تحقيق محمد خلف الله أحمد، وزميله، ط٣، دار المعارف، بالقاهرة .
١٦- البيان في إعجاز القرآن: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار – عمان، الأردن .
١٧- تاريخ الخلفاء، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تعليق: محمود رياض الحلبي، دار المعرفة – بيروت ١٩٧٧م .
١٨- تسهيل نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز: محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) تيسير عبد القادر حسين، دار الأوزاعي، قطر، ١٩٨٩م.
١٩- تفسير البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي: محمد بن يوسف (ت٧٤٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت .

٢٠- تفسير القرآن العظيم: لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، مطبعة الاستقامة، القاهرة .
٢١- التراث النقدي والبلاغي لمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجري:د. وليد قصاب، دار الثقافة، الدوحة – قطر، ١٩٨٥م .
٢٢- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت٦٧١هـ) دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣م .
٢٣- الجهم بن صفوان ومكانته في الفكر الإسلامي: خالد العلي، دار الإرشاد، بغداد، ١٩٦٥م .
٢٤- حجج النبوة: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)- ضمن رسائل الجاحظ- تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط١، الخانجي، القاهرة، ١٩٧٩م .
٢٥- حول إعجاز القرآن: علي العماري، سلسلة الثقافة الإسلامية عدد٤٤، حزيران ١٩٦٣م، القاهرة.
٢٦- الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن: د.عدنان زرزور، مؤسسة الرسالة للطباعة.
٢٧- الحيوا ن: لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٦٩م .
٢٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الفضل شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الآلوسي البغدادي (ت ١٢٧٠هـ)، بيروت، ١٩٧٨م.
٢٩- سر الفصاحة: لأبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي (ت٤٦٦هـ)، تصحيح وتعليق عبد المتعال

الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، القاهرة، ١٩٥٣م.

٣٠- السيرة النبوية: لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري(ت٢١٨هـ)- حققها وضبطها مصطفى السقا وزملاؤه.الطبعة الأولى – دار الخير بدمشق -١٩٩٦.

٣١- شرح الأصول الخمسة، تحقيق د.عبد الكريم عثمان،مكتبة وهبة، ط١، مصر، ١٩٦٥م .

٣٢- شرح الشفا للقاضي عياض: للإمام الملا علي القاري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٣- شرح المواقف للقاضي عضد الدين عبد الرحمن الإيجي (ت٧٥٦هـ) : السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني: (ت ص٨١٢هـ) ط١، مطبعة السعادة، مصر ١٩٠٧م.

٣٤- طبقات المعتزلة: ابن المرتضى (أحمد بن يحيى)، تحقيق سوسنة ريفلد فلزر، ط بيروت ١٩٦١م.

٣٥- طبقات المعتزلة: القاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد (ت٤١٥هـ)، تحقيق علي سامي النشار، ط مصر ١٩٧٢م .

٣٦- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: يحيى بن حمزة اليمني العلوي (ت ٧٤٩هـ)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٧- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية : لإمام الحرمين عبد الملك بن أبي عبد الله الجويني، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.

٣٨- علوم القرآن عند المفسرين، مركز الثقافة والمعارف القرآنية، مكتب الإعلام الإسلامي ط١، ١٤١٦هـ، إيران.
٣٩- الفرق بين الفرق:عبد القاهر بن طاهر البغدادي(ت ٤٢٤هـ)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٨م.
٤٠- الفصل في الملل والأهواء والنحل: علي بن أحمد بن حزم (ت٤٥٦هـ)، دار صادر، بيروت .
٤١- فكرة إعجاز القرآن : نعيم الحمصي، ط١٩٨٠،٢م، مؤسسة الرسالة – بيروت .
٤٢- فكرة النظم في تطورها وأهدافها:د. بسيوني عرفة، ط ١، دار الرسالة بالقاهرة، ١٩٨٢م.
٤٣- الفهرست: لابن النديم، محمد بن اسحق (ت ٣٨٣هـ)، ط بيروت ١٩٦٤م .
٤٤- قضية الإعجاز بين المتقدمين والمتأخرين: د. عبد الفتاح محمد سلامة، دار التوفيقية للطباعة، الأزهر، ١٩٨٠م.
٤٥- كتاب أبو الحسن الماوردي: د. محمد سليمان داود، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية .
٤٦- الكندي فيلسوف العرب: أحمد فؤاد الأهوا ني، سلسلة أعلام العرب عدد/٢٦، المؤسسة المصرية العامة للطباعة والترجمة والنشر، القاهرة.
٤٧- لسان العرب: لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ)، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م، عني بتصحيحها

أمين محمد عبد الوهاب وزميله، دار إحياء التراث العربي، بيروت_ لبنان.

٤٨- لوامع الأنوار البهية، وسواطع الأسرار الأثرية: محمد بن أحمد السفاريني (ت١١٨٩هـ)، ط٢ دمشق، ١٤٠٢ للهجرة .

٤٩- مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، دار المسلم للنشر، الرياض، ط٢، ١٩٩٦م .

٥٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي، عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن (ت ٥٤١هـ)، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، وزميله، ط١، قطر.

٥١- مشكلة الألوهية: د. محمد غلاب:، ط٢، ١٩٥م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، القاهرة .

٥٢- معترك الأقران في إعجاز القرآن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة .

٥٣- المعتزلة: زهدي حسن جار الله: منشورات النادي العربي، يافا،١٩٤٧م .

٥٤- المعجزة الكبرى- القرآن : لأبي زهرة محمد بن أحمد بن مصطفى(ت١٩٧٤م)، طبع دار الفكر العربي بالقاهرة _ بدون تاريخ .

٥٥- المغني في أبواب التوحيد والعدل : للقاضي المعتزلي عبد الجبار بن أحمد (ت ٤١٥هـ) تحقيق: أمين الخولي – (ج ١٦- إعجاز القرآن)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة .

٥٦- مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير: فخر الدين محمد بن عمر الرا زي (ت٦٠٦هـ)، ط٢، دار الكتب العلمية، طهران.
٥٧- مقدمة جامع التفاسير، مع تفسير الفاتحة ومطالع سورة البقرة، للإمام العلامة أبي القاسم الراغب الأصفهاني، حققه وقدم له وعلق حواشيه، أ. د . أحمد حسن فرحات، ط١، ١٩٨٤م، دار الدعوة، الكويت
٥٨- الملل والنحل: لأبي الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت٥٤٨هـ)،(على هامش الفصل لابن حزم الأندلسي)، دار صادر، بيروت.
٥٩- مناهل العرفان في علوم القرآن: محمد عبد العظيم الزرقاني، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، القاهرة .
٦٠- المنحى الإعتزالي في البيان وإعجاز القرآن: د. أحمد أبو زيد، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع،الرباط .
٦١- نظرية الإعجاز القرآني وأثرها في النقد العربي القديم: د. أحمد سيد محمد عمار ط١، ١٩٩٨م . دار الفكر بدمشق .
٦٢- النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن): علي بن عيسى الرماني (ت٣٨٦هـ) الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، تحقيق د. محمد خلف الله أحمد وزميله
٦٣- النكت والعيون: لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، راجعه وعلق عليه : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط!، ١٤١٢ للهجرة .
٦٤- مجلة الأزهر الشريف، مجلد / ٢١، ١٣٦٩هـ.